الدورية التاريخية / العدد الأول السنة الأول

ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⵏ ⵜⵓⵙⵜⵉ ⵏ ⵜⵉⵣⵔⴰⵡⵉⵏ

المركز الليبي للدراسات الأمازيغية

ⵜⵉⵎⵣⵔⵉ ⵏⵖ

ⵜⵓⵖⵔⴰⴼⵢⴰ ⴷ ⵜⵣⵔⵉⵡⵉⵏ ⵏ ⵜⵉⵖⵔⴰⴼⵉⵏ

أمزري نغ

مجلة التاريخ والجغرافيا

هذه الدورية طبع في سنة
2026 / 2976
الدورية التاريخية / العدد الأول السنة الأول

المركز الليبي للدراسات الأمازيغية
الرقم الوطني للكتاب

000-0000-0000-00

مقدمة

استجابةً للحاجة المتنامية إلى منصّات أكاديمية محكّمة تُعنى بإعادة قراءة تاريخ ليبيا وشمال إفريقيا قراءةً علمية رصينة، تنطلق من المعطيات المحلية وتستند إلى المناهج الحديثة في البحث التاريخي والجغرافي، تصدر هذه الدورية عن المركز الليبي للدراسات التاريخية بوصفها فضاءً علميًا متخصصًا يُعنى بالدراسات التاريخية بمختلف فروعها، وبالجغرافيا التاريخية، والطوبونوميا، والبيوغرافيا، وتقاطعاتها مع اللسانيات، والأنثروبولوجيا، وعلم الآثار، وتاريخ الأفكار.

وتهدف الدورية إلى الإسهام في تطوير البحث العلمي حول التاريخ المحلي والإقليمي، وإعادة الاعتبار للمصادر الأصلية، والوثائق، والمخطوطات، والروايات الشفوية، والنقوش، والأسماء الجغرافية، والسير الفردية والجماعية، باعتبارها مفاتيح أساسية لفهم التحولات التاريخية والبُنى الاجتماعية والثقافية في ليبيا ومحيطها المغاربي والمتوسطي والإفريقي.

وتؤمن هيئة تحرير الدورية بأن كتابة التاريخ لا يمكن أن تنفصل عن سياقها المكاني واللغوي والإنساني، وأن دراسة الأسماء الجغرافية (الطوبونوميا) والسير الذاتية (البيوغرافيا) تُشكّل مدخلًا علميًا ضروريًا لإعادة بناء الذاكرة التاريخية، وكشف ديناميات الاستمرارية والانقطاع، والهجرة، والتفاعل الحضاري، وتحوّلات الهوية عبر الزمن.

وانطلاقًا من هذا التصور، وُضعت لوائح النشر لتكون إطارًا منهجيًا منظمًا يضمن جودة الأبحاث المنشورة، ويحدد العلاقة العلمية والأخلاقية بين الدورية والباحثين، وفق المعايير الأكاديمية المعتمدة دوليًا، سواء من حيث أصالة البحث، أو سلامة المنهج، أو دقة التوثيق والإحالات، أو الالتزام بأخلاقيات البحث والنشر.

وتنظم هذه اللوائح المحاور الآتية:

أولًا: شروط تقديم الأبحاث

تشمل المعايير العلمية الأساسية لقبول المقالات، من حيث جدة الموضوع، وأهميته، ووضوح الإشكالية، واعتماد منهجية علمية دقيقة، وضبط الهوامش والمراجع، والالتزام بالشكل المعتمد في الدورية.

ثانيًا: إجراءات التحكيم العلمي

تعتمد الدورية نظام التحكيم العلمي المزدوج السري (Double-Blind Review)، بما يضمن النزاهة والموضوعية، مع تحديد آليات التواصل مع الباحث، وحقه في الرد على ملاحظات المحكّمين، وإجراءات القبول أو الرفض أو طلب التعديلات.

ثالثًا: أخلاقيات النشر العلمي

تؤكد الدورية التزامها الصارم بأخلاقيات البحث العلمي، وترفض جميع أشكال السرقات الأدبية، أو التكرار غير المبرر للنشر، أو التلاعب المنهجي بالمصادر، مع توضيح الإجراءات المتخذة في حال الإخلال بهذه القواعد.

رابعًا: حقوق الملكية الفكرية والنشر

تبيّن اللوائح حقوق المؤلفين والدورية فيما يخص نشر المواد العلمية ورقيًا ورقميًا، وإعادة استخدامها وفق الأطر القانونية، إضافة إلى توضيح ما يُمنح للباحثين من نسخ أو حقوق مرتبطة بالنشر.

خامسًا: الدعم العلمي والتعاون المؤسسي

تسعى الدورية، بالتعاون مع المركز الليبي للدراسات التاريخية والمؤسسات البحثية الشريكة، إلى تقديم أشكال من الدعم العلمي والفني، تشمل المراجعة الأكاديمية، والتحرير اللغوي، والإخراج الفني، خصوصًا للأبحاث ذات القيمة العلمية أو التراثية العالية.

الدعوة إلى المساهمة

تفتح الدورية أبوابها أمام الباحثين، والأكاديميين، وطلبة الدراسات العليا، داخل ليبيا وخارجها، للمساهمة بأبحاث أصيلة تُثري حقول التاريخ، والجغرافيا التاريخية، والطوبونوميا، والبيوغرافيا، وتسهم في بناء معرفة تاريخية نقدية، مؤسسة، ومتجددة، تنطلق من الواقع المحلي وتتحاور مع الإنتاج العلمي العالمي.

الجرمانتيون في الكتابة التاريخية الحديثة
من "مملكة أسطورية" إلى نموذج الدولة الواحية

مادغيس وُمادي[1]

.1 بدايات الكتابة الأوروبية: الجرمانتيون كـ"لغز صحراوي"

دخل الجرمانتيون الكتابة التاريخية الحديثة من بوابة الأدبيات الكلاسيكية، لا من خلال المادة الأثرية. فقد شكّلت إشارات بلينيوس، وبطليموس، وتاسيتوس الأساس الذي بُنيت عليه التصورات الأولى عنهم، وهي إشارات متفرقة، غير متجانسة، وغالبًا محمّلة بأحكام قيمية رومانية ترى في الصحراء مجالًا للغرابة والخطر.

في هذا السياق، لم يُنظر إلى الجرمانتيين بوصفهم مجتمعًا تاريخيًا مكتملًا، بل كـ«اسم» يطفو في النصوص، مرتبطًا بالعربات الحربية، أو بالهجمات على حدود الإمبراطورية. وقد أدّى هذا الطابع النصّي المجتزأ إلى تشكّل صورة مبكرة عن الجرمانتيين باعتبارهم:

شعبًا غامضًا

غير مستقر

يفتقر إلى مقومات الدولة

وهي صورة ستستمر، بأشكال مختلفة، حتى منتصف القرن العشرين.

.2 المدرسة الاستعمارية: الصحراء بوصفها فضاءً غير منتج

مع التوسع الاستعماري الأوروبي في شمال أفريقيا، خضعت دراسة الصحراء لمنطق سياسي-معرفي يرى في المتوسط مركزًا للحضارة، وفي الداخل الصحراوي هامشًا تابعًا. وقد انعكس هذا بوضوح في الكتابات الفرنسية والإيطالية والبريطانية المبكرة.

عبّر الباحث الفرنسي **Diolé Roger** عن هذا الموقف حين وصف الجرمانتيين بأنهم «شعب غير محدد، في أرض غير محددة، في زمن غير محدد»، وهو توصيف يعكس

1 - كاتب مترجم وصاحب عدة مؤلفات وتراجم اللغة والتاريخ

عجزًا منهجيًا أكثر مما يعكس واقعًا تاريخيًا. وقد تحوّل هذا العجز إلى حكم قيمي، يبرر استبعاد الجرمانتيين من تاريخ "الحضارات الكبرى".

أما في الكتابات الإيطالية، ولا سيما خلال فترة الاحتلال، فقد جرى ربط أي مظهر عمراني في فزّان بتدخل روماني مباشر، في إطار سردية استعمارية تسعى إلى:

إضفاء الشرعية التاريخية على الوجود الإيطالي

تصوير الصحراء كأرض لا "تُعمر" إلا بقدوم الأوروبيين

وهكذا، أُعيد إنتاج فكرة أن الجرمانتيين إما نتاج للرومان، أو مجتمع بدائي استفاد عرضًا من قربه منهم.

3. الرحّالة والكتّاب: بين الانبهار والاختزال

في منتصف القرن العشرين، ظهرت كتابات رحّالة وصحفيين حاولوا تقديم سرد أكثر إنسانية عن فزّان، إلا أنهم بقوا أسرى أدوات غير علمية. من أبرزهم الكاتب البريطاني **Wellard John**، الذي رأى في جرمة «مدينة صحراوية ذات طابع روماني»، وذهب إلى افتراض أن الرومان:

بنوا الحصون

نظموا الطرق

نقلوا "المدنية" إلى الداخل

ورغم أن بعض ملاحظاته الميدانية كانت دقيقة، فإن استنتاجاته بقيت متأثرة بفكرة "التفوّق الحضاري المتوسطي"، ولم تُدعَم بتحليل أثري منهجي. وتُظهر مراجعة أعماله لاحقًا أن كثيرًا من الأبنية التي نُسبت إلى الرومان هي في الواقع جرمانتية خالصة من حيث التقنية والتخطيط.

4. التحول المنهجي: من النص إلى الأرض

يشكّل النصف الثاني من القرن العشرين نقطة انعطاف حاسمة في دراسة الجرمانتيين، مع انتقال مركز الثقل من: النصوص الكلاسيكية إلى المسوحات والحفريات الأثرية المنهجية وقد أسهم هذا التحول في كشف:

كثافة الاستيطان

عمق التراكم الطبقي

تنوع أنماط المواقع

تعقيد شبكات التجارة

لكن هذا التحول ظلّ محدود الأثر حتى نهاية التسعينيات، بسبب:

نقص التمويل

ضعف التنسيق بين المشاريع

هيمنة قراءات قديمة على تفسير النتائج

5. مشروع فزّان وإعادة كتابة التاريخ الجرمانتي

مع انطلاق مشروع فزّان، بقيادة **J David Mattingly**، دخلت دراسة الجرمانتيين مرحلة جديدة تمامًا. فقد اعتمد المشروع على:

مسوحات واسعة النطاق

حفريات stratigraphic دقيقة

تواريخ مطلقة (AMS)

قراءة تكاملية للبيئة، والعمران، والاقتصاد

وأدّت هذه المقاربة إلى تفكيك معظم المسلّمات القديمة، وإثبات أن:

جرمة مدينة محلية النشأة

الاستيطان سابق للاتصال الروماني

الاقتصاد الجرمانتي قائم على فائض منظم

التجارة العابرة للصحراء عنصر بنيوي لا طارئ

الأهم من ذلك أن المشروع أعاد الجرمانتيين إلى **تاريخ الصحراء**، لا إلى هوامش تاريخ روما.

6. حدود المقاربة الحديثة: ما بعد ماتنقلي

على الرغم من القيمة العلمية الكبيرة لأعمال ماتنقلي، فإن الكتابة الحديثة لا تزال

تعاني من بعض القيود، من بينها:

التركيز المفرط على جرمة مقارنة ببقية فزّان

ضعف المقارنات مع نماذج صحراوية إفريقية غير متوسطية

محدودية دمج المصادر العربية الوسيطة في التحليل البنيوي

ومن هنا، يقترح هذا البحث توسيع أفق التحليل عبر:

إدراج الجرمانتيين ضمن تاريخ الصحراء الكبرى ككل

مقارنتهم بالدول الواحية اللاحقة

تحرير مفهوم الدولة من قوالبه المتوسطية الصارمة

7. نحو سردية تاريخية جديدة للجرمانتيين

في ضوء ما سبق، يمكن القول إن الجرمانتيين انتقلوا في الكتابة التاريخية من:

اسم غامض في النصوص الكلاسيكية

إلى كيان مشوَّه في الأدبيات الاستعمارية

إلى موضوع أثري علمي معاصر

لكن المرحلة القادمة تقتضي:

تجاوز سردية "الاكتشاف الأوروبي"

كتابة تاريخ الجرمانتيين من داخل الصحراء

فهمهم بوصفهم فاعلين تاريخيين مستقلين

خاتمة عامة: الجرمانتيون وإعادة مركزية الصحراء

تُظهر هذه الدراسة الموسَّعة أن الحضارة الجرمانتية ليست استثناءً عابرًا في تاريخ شمال أفريقيا، بل نموذجًا تأسيسيًا للدولة الواحية الصحراوية. فقد نجح الجرمانتيون في:

تحويل بيئة قاسية إلى مجال إنتاج

بناء مدن مستقرة في عمق الصحراء

التحكم في شبكات التجارة العابرة للأقاليم

تطوير ثقافة مادية تعبّر عن ذائقة محلية مستقلة

وعليه، فإن إعادة إدراج الجرمانتيين في السرديات الكبرى لتاريخ أفريقيا القديمة لا تمثّل مجرد تصحيح معرفي، بل **تحولًا في زاوية النظر**: من تاريخ يُكتب من السواحل إلى تاريخ يُفهم من قلب الصحراء.

قراءة نقدية في كتاب الفراعنة الليبيون في مصر[2]

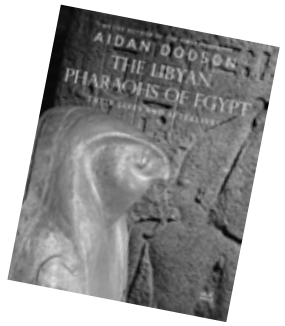

"حياتهم وما بعدها" للمؤرخ إيدان دودسون

1. مقدمة: تسليط الضوء على حقبة منسية

يقدم كتاب «الفراعنة الليبيون في مصر: حياتهم وما بعدها» للمؤرخ المرموق إيدان دودسون، استعراضاً شاملاً لواحدة من أكثر الحقب التاريخية تعقيداً وإثارةً للجدل في تاريخ مصر القديمة. تمثل الفترة الانتقالية الثالثة، الممتدة من القرن العاشر وحتى السابع قبل الميلاد، حقبة محورية تميزت باللامركزية السياسية، وصعود حكام من أصول غير مصرية، وتحديداً من القبائل الليبية التي استقرت في الدلتا. لطالما اعتبرت هذه الفترة عصر انحدار وغموض، وغالباً ما يتجاهلها الباحثون والجمهور العام على حد سواء. يأتي عمل دودسون في توقيت حاسم، ليعيد تقييم السرديات التقليدية التي طالما وصمت هذه الحقبة بالانحطاط، ويقدم بديلاً قائماً على فكرة الاندماج الثقافي والسياسي التدريجي. يهدف هذا المقال إلى تقديم مراجعة علمية شاملة للكتاب، وتحليل محتواه ومقارباته المنهجية، وتقييم مساهمته في إثراء فهمنا لهذه الفترة المحورية من التاريخ المصري.

2. تحليل محتوى الكتاب ومحاوره الرئيسية

يقدم الكتاب سرداً شاملاً ومتعدد الأبعاد يجمع بين التاريخ السياسي المعقد، والآثار المادية، والاكتشافات الحديثة، وتاريخ إعادة اكتشاف هذه الفترة. يتجاوز العمل مجرد السرد الكرونولوجي ليقدم تحليلاً متعمقاً للمحاور الأساسية التي شكلت هذه الحقبة.

---

2 - **العنوان الأصلي:** The Libyan Pharaohs of Egypt: Their Lives and Afterlives
المؤلف: Aidan Dodson
الناشر: American University in Cairo Press
سنة النشر: 2025
عدد الصفحات: 244 صفحة

2.1. أصول الحكم الليبي: اندماج سلمي وليس غزوًا

يطرح الكتاب فكرة مركزية تتحدى التصورات التقليدية حول كيفية وصول الليبيين إلى عرش مصر. فبدلاً من سيناريو الغزو العسكري، يصور دودسون هذه العملية كتحول تدريجي قائم على «الهجرة المستمرة والتزاوج مع النخب المصرية». يدعم دودسون طرحه بالإشارة إلى عملية اندماج طويلة الأمد، وهو ما تؤكده مصادر أخرى توثق وجود الليبيين كمرتزقة في الجيش المصري منذ أواخر الدولة الحديثة، وتأسيسهم لمستوطنات عسكرية منحتهم نفوذاً متزايداً، مما جعل صعودهم للعرش تتويجاً لعملية تغلغل ديموغرافي وعسكري امتدت لقرون. هذا الطرح يكتسب أهمية خاصة عند مقارنته بالصراعات الدامية السابقة بين المصريين والليبيين، والتي تعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، ويمثل تحولاً تاريخياً جذرياً في طبيعة العلاقة بين الشعبين.

لا يكتفي المؤلف بسرد تاريخ الأسر الليبية (الأسرتين 22 و32)، بل يعود في المقدمة إلى جذور أقدم، موضحًا الحضور الليبي في مصر قبل اعتلائهم سدة الحكم. وعند حديثه عن الأسر الليبية، يتناول حياتهم، مسار صعودهم إلى الحكم، وكيف أدارت هذه النخب الدولة المصرية، ثم ينتقل إلى ما خلّفوه بعدهم، سياسيًا ودينيًا وثقافيًا.

2.2. من الدولة الموحدة إلى التجزئة السياسية

يتناول الكتاب ببراعة التطور السياسي الذي شهدته مصر تحت حكم الفراعنة الليبيين. يوضح أن الحكام الأوائل، مثل **شوشنق الأول**، سعوا في البداية إلى الحفاظ على «تقليد الدولة المصرية الموحدة». ولكن مع مرور الوقت، بدأت «أفكار السيطرة اللامركزية» الليبية، القائمة على الولاءات القبلية، تفرض نفسها على المشهد السياسي. أدى هذا التحول إلى تجزئة السلطة وظهور حكام محليين ومشيخات مستقلة في مناطق مختلفة من مصر، اتخذ بعض قادتها ألقاباً فرعونية كاملة. وقد أفضى هذا الانقسام في النهاية إلى اندلاع «حرب أهلية طويلة للسيطرة على جنوب مصر وطيبة»، وهي حالة من الصراع الداخلي تتجسد بوضوح في تاريخ الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين المتداخلتين.

4.3. كنوز تانيس: شاهد على القوة والثراء

يتحدى الكتاب فكرة أن هذه الفترة كانت فترة قوة إقتصادية كبيرة وسلطة مركزية قوية في بداياتها، مستشهداً بالأدلة الأثرية المادية المذهلة. تشكل اكتشافات «بيير مونتيه» في المقابر الملكية بتانيس دليلاً دامغاً على ثراء وقوة هؤلاء الملوك. فالعثور على

«أقنعة ذهبية وتوابيت من الفضة الخالصة ومجوهرات رائعة»، مثل التابوت الفضي الفريد للملك **شوشنق الثاني**، يعيد رسم صورة هذه الفترة. وهو ما يثبت، كما يؤكد أن هؤلاء الحكام كانوا قوة لا يستهان بها، وليسوا مجرد حكام ضعفاء. ورغم أن هذه الكنوز تعكس قوة اقتصادية لا يمكن إنكارها، إلا أنها لا تنفي حالة التجزئة السياسية التي أشار إليها دودسون نفسه، مما يرسم صورة لحكام أثرياء لكن في ظل دولة منقسمة.

2.4. نهاية الحقبة وإعادة الاكتشاف الحديثة

يختتم الكتاب سرده التاريخي لهذه الفترة بوصف التدخل النوبي في القرن الثامن قبل الميلاد، والذي فرض «درجة من السيطرة المركزية» على مصر المقسمة. ولا يمكن فهم هذه النهاية إلا كتمهيد مباشر لصعود الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، التي ورثت دولة مقسمة ونجحت في إعادة توحيدها بالكامل في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، مطلقةً بذلك ما يعرف بالعصر الصاوي. أحد المحاور المهمة التي يضيفها دودسون هو البعد التأريخي (الهيستوريوغرافي)، حيث يتناول الكتاب قصة «إعادة اكتشاف ملوكه وآثاره في العصر الحديث». هذا المحور لا يثري السرد التاريخي فحسب، بل يربط الماضي بالحاضر، ويظهر كيف تشكل فهمنا لهذه الحقبة من خلال جهود علماء الآثار والمؤرخين المعاصرين.

3. تقييم علمي ومساهمة الكتاب المعرفية

يقدم كتاب «الفراعنة الليبيون في مصر» مساهمة علمية بارزة في مجال علم المصريات، ويمكن تلخيص نقاط قوته الرئيسية في الجوانب التالية:

منهجية تركيبية: يتجاوز الكتاب السرد التاريخي الخطي، ليقدم بنية تحليلية تربط بين التحولات السياسية (صعود المشيخات الليبية)، والمكتشفات الأثرية (كنوز تانيس)، والأبعاد التأريخية (تاريخ إعادة اكتشاف الفترة)، مما يوفر فهماً متعدد الطبقات للحقبة.

سهولة العرض: على الرغم من تعقيد الموضوع، لكن يمكن وصف الكتاب بأنه «مكتوب بأسلوب سهل». هذه الميزة تجعله في متناول جمهور أوسع من القراء، بما في ذلك غير المتخصصين، دون التضحية بالدقة العلمية، مما يجعله جسراً بين البحث الأكاديمي والجمهور المثقف.

سد فجوة معرفية: يساهم الكتاب بشكل مباشر في إلقاء الضوء على «حقبة غالبًا ما يتم تجاهلها من التاريخ المصري». من خلال تقديمه لسردية متماسكة وحديثة،

فإنه يوفر مرجعاً أساسياً لا غنى عنه للباحثين والطلاب الذين يسعون لفهم فترة اتسمت بالغموض والتجزئة.

بشكل عام، يمكن اعتبار هذا الكتاب عملاً مرجعياً ينجح في تنظيم الفوضى الظاهرية للفترة الانتقالية الثالثة، ويقدم رؤية متوازنة ومحدثة تتحدى الأفكار النمطية حولها.

6. خاتمة وتوصية

في الختام، يعد كتاب «الفراعنة الليبيون في مصر: حياتهم وما بعدها» لإيدان دودسون إضافة علمية قيّمة ومهمة للمكتبة المصرية. إنه يقدم رؤية متوازنة وموثقة لحقبة معقدة، تجمع بين التحليل التاريخي العميق والأدلة الأثرية المادية، وكل ذلك بأسلوب يجمع بين الدقة الأكاديمية وسهولة العرض. بناءً على ذلك، يُعد هذا الكتاب مرجعاً لا غنى عنه للباحثين المتخصصين في علم المصريات، وطلاب التاريخ القديم، وكل مهتم بفهم الفترات الأقل شهرة والأكثر تحدياً في تاريخ مصر القديمة العريق.

عن الكاتب

يستمد الكتاب مصداقيته وقوته من الخبرة العميقة لمؤلفه، الذي يُعد مرجعية عالمية معترف بها في هذا المجال. معرفته الواسعة بالتفاصيل التاريخية والأثرية تظهر بوضوح في كل فصل من فصول الكتاب.

إيدان دودسون Dodson Aidan هو عالم مصريات بريطاني بارز وأستاذ في علم المصريات بجامعة بريستول، ويُعد من الأسماء الأكاديمية المعروفة في دراسة التاريخ السياسي والديني لمصر القديمة، ولا سيما في فترات التحوّل والانتقال بين الأسر الحاكمة. يتميز عمله بالدقة الأرشيفية والاعتماد الواسع على النقوش والآثار المادية إلى جانب المصادر الكلاسيكية، ما جعله مرجعًا أساسيًا في قضايا التسلسل الأسري والشرعية الملكية.

تركّز أبحاث دودسون على موضوعات مثل الملوك "الهامشيين" أو الأقل حضورًا في السرديات التقليدية، والطقوس الجنائزية الملكية، وتاريخ الأسر المتأخرة. وقد عُرف بقدرته على إعادة قراءة الفترات التي غالبًا ما وُصفت بالانحطاط أو الغموض، مبرزًا ديناميكيات السلطة والتفاعل الثقافي بدل الاقتصار على منظور "القطيعة" التاريخية.

يتميّز أسلوب أيدان دودسون بالجمع بين الصرامة الأكاديمية والسرد الواضح القابل

للوصول إلى جمهور أوسع من غير المتخصصين، دون التفريط في العمق العلمي. وقد أسهمت أعماله في إعادة فتح نقاشات كبرى حول الهوية، والانتماء، والتداخل الثقافي في مصر القديمة، جاعلًا من دراساته مرجعًا لا غنى عنه للباحثين في تاريخ شمال أفريقيا ووادي النيل على حد سواء.

الأسطول الداخلي

دراسة لنقوش صخرية بحرية وعسكرية ضمن سياق العصور القديمة المتأخرة في جبال نفوسة، ليبيا

مادغيس وُمادي[3]

الملخص

كشف مسح حديث لموقع كهف في أمّي الشيخ بالقرب من مدينة كاباو، في جبل نفوسة، عن مجموعة هامة من النقوش الصخرية الموجودة بعيدًا عن ساحل البحر الأبيض المتوسط. يتميز الموقع بعناصر معمارية متطورة وموقع استراتيجي، ويُعتقد محليًا أنه كان ملاذًا مسيحيًا قديمًا هُجر حوالي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) - وهي فرضية تدعمها أسماء الأماكن القريبة. تبحث هذه الورقة في الشذوذ الرئيسي للموقع: وجود العديد من الرسوم المحفورة لسفن شراعية في بيئة قاحلة وغير ساحلية، إلى جانب نقوش عسكرية لفرسان على جمال. من خلال تحليل الأدلة الفوتوغرافية لهذه النقوش، يحدد هذا التقرير الاكتشاف ويقترح سلسلة من الأطر النظرية لتفسير هذه الظاهرة الفريدة.

مقدمة

تشكل جبال نفوسة مشهدًا ثقافيًا حاسمًا في غرب ليبيا، حيث كانت تاريخياً نقطة تقاطع للمؤثرات الأمازيغية الأصلية والرومانية والبيزنطية والإسلامية. وثقت الاستكشافات الحديثة بالقرب من مدينة كاباو (الإحداثيات V736+55F) موقع كهف ذو تعقيد معماري ملحوظ، يتميز بأقواس محفوظة جيدًا وزخارف جبسية معقدة. تشير التقاليد الشفهية المحلية بقوة إلى أن الموقع كان يعمل ككنيسة مسيحية قبل أسلمة المنطقة، وهو ما يعززه وجود مسجد مهجور قريب يحمل اسم «بو دير»، مما يشير إلى تكريس مسيحي للمكان قبل الإسلام.

تاريخيًا، يُعتقد أن المدينة المرتبطة بالموقع قد هُجرت حوالي القرن الخامس الهجري

3 - كاتب مترجم وصاحب عدة مؤلفات وتراجم اللغة والتاريخ

(الحادي عشر الميلادي). وتشير المعاينات الميدانية الإضافية إلى أن الموقع يتمتع بأهمية استراتيجية بالغة؛ فالكهف، الذي يتكون من جزأين، يقع تحت أنقاض قرية قديمة شُيدت على تلة في أسفل الجبل في منطقة أقل قابلية للدفاع. إنتقل الاهالي حسب الوثائق إلى قمة الجبل إلى منطقة أكثر تحصينا، موقع كاباو الحديث (الذي يشير الأهالي إلى انتقال أسلافهم إليه).

موقع امّي الشيخ وبالرغم من تميزه بعمارة دقيقة وفريدة وقصر (مخزن حبوب) قديم يختلف عن الطراز المعروف لقرى المنطقة. الأهم من ذلك، تظهر على جدران الكهف آثار واضحة للحرق والإتلاف، مما يطرح تساؤلات حول ما إذا كان هذا التخريب متعمدًا أو عرضيًا، وهو ما يضيف طبقة أخرى من التعقيد لتاريخ هجر الموقع. ورغم موقعه قريبا من أخاديد الجبال، فإن جدران الكهف مزينة بالعديد من النقوش لسفن بحرية.

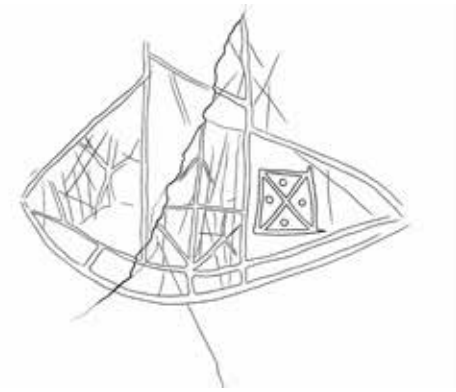

المجموعة: وصف النقوش

تم حفر النقوش الصخرية في سطح صخري خشن وداكن مغطى بطبقة سميكة من العتق. تسلط الصور المقدمة الضوء على عدة زخارف مميزة:

نوع السفينة "أ" (مفصلة): يصور أحد النقوش هيكلًا على شكل هلال مع صاري مركزي وحبال قطرية معقدة. الجزء الداخلي مزين بأنماط شبكية. يتميز الجانب الأيمن بزخرفة هندسية مميزة: مربع مقسوم بحرف «X»، يحتوي على نقطة في كل من المساحات المثلثة الأربعة.

نوع السفينة "ب" (سردية): سفينة ثانية تتضمن عنصرًا سرديًا: تمثيل بشري

تخطيطي يقف على سطح السفينة بالقرب من الصاري، مما يضيف بُعدًا إنسانيًا للتصوير.

نقوش الفرسان على الجمال (سياق عسكري تاريخي): بالإضافة إلى الزخارف البحرية، كشف المسح عن نقوش تصور فرسانًا يمتطون جمالاً ويحملون رماحًا. هذه النقوش تقدم رابطًا تاريخيًا مباشرًا، حيث تتوافق مع الروايات حول القائد الأمازيغي الليبي «كاباون» في القرن السادس الميلادي، والذي اشتهر باستخدامه للجمال لمحاربة الوندال. وجود هذه النقوش الواقعية بجانب السفن يثري السياق التاريخي.

علامات مجردة ومتراكبة: السفن ليست معزولة. وهي مصحوبة بهياكل هندسية غامضة، وتراكمات كثيفة من الخطوط المتقاطعة والخدوش المتراكبة التي تشكل طرسًا معقدًا يشير إلى الاستخدام المتكرر للسطح.

الأطر النظرية وأسئلة البحث

يمثل وجود «أسطول» من السفن المحفورة في بيئة غير ساحلية من العصور القديمة المتأخرة مفارقة. نقترح السبل النظرية التالية للتحقيق:

1. نظرية السجل الحرفي للذاكرة

على الرغم من بعدهم، كان السكان مرتبطين بشبكات التجارة الساحلية. يمكن أن تمثل النقوش سجلاً حرفيًا لما تمت مشاهدته. هذا الاحتمال يدعمه وجود نقوش واقعية أخرى لفرسان الجمال في نفس الكهف، والتي تعكس بوضوح التكتيكات العسكرية المعروفة في تلك الحقبة.

سؤال البحث: هل تتوافق تفاصيل السفن المصورة مع العمارة البحرية البيزنطية المتأخرة، مما يشير إلى أنها ملاحظات مباشرة بدلاً من كونها رموزًا معممة؟

هل تتوافق ترتيبات الحبال وأشكال الهياكل المحددة المصورة في النقوش مع العمارة البحرية المعروفة للبحر الأبيض المتوسط في العصور البيزنطية المتأخرة، مما يشير إلى

أنها ملاحظات تقنية مباشرة قام بها مسافرون عائدون إلى المناطق الداخلية، بدلاً من كونها رموزًا معممة؟

2. نظرية الملاحة الروحية (Navigatio Sancti)

بالنظر إلى الأدلة على الوظيفة المسيحية للموقع، قد تكون الصور مجازية. في الأيقونات المسيحية المبكرة، غالبًا ما كانت السفينة ترمز إلى الكنيسة (سفينة بطرس) التي تبحر في مياه العالم المضطربة، أو رحلة الروح إلى الحياة الآخرة.

سؤال البحث: ذا كان هذا الموقع ملاذًا مسيحيًا من القرن الخامس، فهل يجب تفسير هذه السفن من خلال عدسة اللاهوت الآبائي على أنها تمثل الملاحة (navigatio) للروح نحو الخلاص، مما يحول الكهف إلى سفينة مجازية للأمان وسط مشهد ديني متغير؟

3. نظرية التوفيقية الوقائية (Apotropaism)

يشير وجود رموز هندسية محددة بجانب القوارب إلى وظيفة وقائية. يعد شعار المربع والنقطة على نوع السفينة "أ" رمزًا وقائيًا واسع الانتشار عبر مختلف الثقافات القديمة.

سؤال البحث: كيف يخبرنا دمج شعار المربع والنقطة الوقائي داخل هيكل السفينة عن وظيفة النقش؛ هل يمكن أن يمثل هذا ممارسة توفيقية حيث تم دمج الرموز الوقائية الأمازيغية الأصلية مع الصور المجازية المسيحية لدرء الشر أو ضمان المرور الآمن (حرفيًا أو روحيًا)؟

ملحوظة: نقوش لأيادي مع نقاط وأشكال متقاطعة نجدها في كل نواحي الكهف، ويمكن رؤيتها كذلك وهو شيء مألوف في البيوت المجاورة كذلك.

خاتمة

تمثل نقوش كهف كاباو اكتشافًا مهمًا يعقد فهمنا للخيال الثقافي لشمال إفريقيا الداخلي. يتطلب تجاور التكنولوجيا البحرية والنقوش العسكرية الواقعية داخل بيئة جبلية استراتيجية، ومن المرجح أنها مسيحية، نهجًا متعدد التخصصات. هناك حاجة إلى مزيد من التحليل لتحديد ما إذا كانت هذه النقوش سجلات للتجارة والحرب، أو مركبات للروح، أو رموزًا وقائية في عصر انتقالي مضطرب.

من قاعات مونتيزوما إلى شواطئ طرابلس

قراءة نقدية في صناعة أسطورة معركة درنة (1805) وتوظيفها في نشيد مشاة البحرية الأمريكية

توفيق عيّاد الشقروني[4]

ملخص

تتناول هذه الدراسة بالنقد والتحليل السردية الأمريكية لمعركة درنة (1805)، مجادلةً بأن أسطورة «شواطئ طرابلس» ليست توثيقاً تاريخياً فقط، بل هي بناء أيديولوجي ممنهج صُنع لخدمة هوية الأمة الأمريكية الناشئة وتبرير سياساتها التوسعية. ويعتمد البحث على المنهج النقدي التاريخي الذي يتبنى تحليل الخطاب، القائم على تفكيك النصوص والروايات التاريخية الأمريكية المعاصرة لمعركة درنة. كما يقارن المصادر المتعددة، ويكشف عملية تحويل مناوشة عسكرية محدودة الأثر، انتهت بدفع فدية مالية والتخلي عن الحلفاء المحليين، إلى ملحمة بطولية. وتوضح الدراسة أن هذه العملية تمت عبر تضخيم عناصر رمزية مثل المسيرة الصحراوية ورفع العلم، وتم ترسيخها لاحقاً عبر آليات مؤسسية مثل اعتماد «سيف المماليك» والنشيد الرسمي لفيلق مشاة البحرية، مما يقدم نموذجاً لفهم كيفية صناعة الذاكرة الجماعية وتوظيف التاريخ كأداة لخدمة الهوية والسلطة في الحاضر.

كلمات مفتاحية: مشاة البحرية الأمريكية، الحرب البربرية الأولى، معركة درنة، ويليام إيتون، يوسف باشا القرمانلي، نشيد المارينز، صناعة الأسطورة العسكرية، الذاكرة المؤسسية، التاريخ النقدي.

4 - توفيق عياد الشقروني: باحث ومؤرخ، حاصل على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ. صدرت له عدة مؤلفات في التاريخ والتوثيق، وله مساهمات أدبية منشورة في مجالي الشعر والنقد الشعري، بالإضافة إلى سلسلة من المقالات البحثية والدراسات المنشورة في عدد من الصحف والمجلات الثقافية.

مقدمة

تُعد الذاكرة الجماعية، كما يعرّفها موريس هالبواش (Maurice Halbwachs)، "إطارًا اجتماعيًا للذاكرة" يتم تشكيله من خلال الحاضر الجماعي والتفاعلات الاجتماعية (Halbwachs, 1950). وفي السياق الأمريكي، تتجلى هذه الذاكرة بشكل بارز في الأساطير التأسيسية التي، بحسب بندرسون (Benedict Anderson)، تساهم في بناء «المجتمع المتخيل» (Anderson, 1983). ومن بين هذه الأساطير، يحتل نشيد "إلى شواطئ طرابلس" مكانة مركزية، حيث تروي قصة الصراع بين الولايات المتحدة الناشئة والدولة القرمانلية في ليبيا.

تقدم هذه الورقة عملا نقديًا لهذه السردية التاريخية، مدعية أنها بناء أيديولوجي مصمم لتعزيز الهوية الوطنية الأمريكية، أكثر منه سجل للأحداث. وسيسعى البحث إلى تفكيك هذه الأسطورة عبر دراسة المصادر الأولية والثانوية، ليكشف الفجوة بين الرواية الشعبية والواقع التاريخي، متسائلاً: كيف تم توظيف حدث تاريخي محدد لتشكيل ذاكرة جماعية وخدمة أهداف هوياتية؟

بين الأسطورة والواقع: تفكيك سردية درنة

تطرح السردية الأمريكية الرسمية معركة درنة (1805) كملحمة بطولية: مسيرة جريئة عبر الصحراء، هجوم خاطف، ورفع للعلم الأمريكي لأول مرة على حصن في «العالم القديم»، مما أرغم باشا طرابلس على الخضوع. إلا أن هذا السرد البطولي يتهاوى عند وضعه تحت مجهر الفحص التاريخي الدقيق؛ فالمسيرة الملحمية كانت في حقيقتها مغامرة يائسة قادها جيش صغير من المرتزقة وثمانية من المارينز فقط، وكان الهجوم الخاطف يستهدف مدينة درنة الطرفية، وليس قلب نظام القرمانلي في طرابلس. والأهم من ذلك، أن «الخضوع» المزعوم ليوسف باشا انتهى بتوقيع معاهدة دفعت بموجبها الولايات المتحدة فدية قدرها 60 ألف دولار لإطلاق سراح أسراها وتخلت عن حليفها الذي وعدته بالعرش (London, 2005, p. 240). وهنا تبرز الإشكالية المحورية للبحث: كيف تحولت مناوشة محدودة الأثر، انتهت بتسوية دبلوماسية مكلفة، إلى أحد أعظم أمجاد التاريخ العسكري الأمريكي وأسطورة تأسيسية راسخة؟

أطروحة البحث ومنهجيته

انطلاقاً من هذه الإشكالية، نناقش في هذا البحث بأن تخليد معركة درنة في الذاكرة الأمريكية، وتحديداً في نشيد المارينز، لم يكن نتيجة حتمية لأهميتها العسكرية، بل كان

نتاج عملية واعية ومنهجة من «صناعة الأسطورة». استهدفت هذه العملية تحويل واقع دبلوماسي إلى قصة بسيطة عن انتصار الخير (أمريكا) على الشر (القراصنة)، وتأسيس سابقة للتدخل الخارجي، وبناء هوية فريدة لفيلق مشاة البحرية كقوة استكشافية ضاربة.

يعتمد هذا البحث على منهج تحليلي تأويلي يجمع بين المضمون والخطاب التاريخي في النصوص الأمريكية المعاصرة لمعركة درنة. وتمت قراءة الوثائق الرسمية والمذكرات والخطابات الرئاسية بوصفها نصوصاً تُنتج معنى وتبني سرداً أيديولوجياً، لا مجرد تسجيل للوقائع. ويقوم على تفكيك المفردات التي تكرّس ثنائية "التحضّر مقابل الهمجية" و"النصر مقابل الإهانة"، وعلى مقارنة كيفية تمثيل الحدث في المصادر الأمريكية والليبية والأوروبية، للكشف عن الازاحة الدلالية التي شكّلت صورة الذات والآخر. يهدف هذا المنهج إلى تجاوز الوصف التاريخي نحو فهم البنية الخطابية التي صنعت الأسطورة وربطها بالهوية السياسية والعسكرية الأمريكية.

صناعة الأساطير التأسيسية وهوية الأمة

نقد المصادر الأمريكية

تُعدّ المصادر الأمريكية الرئيسة حول معركة درنة، مثل أعمال (Wright & Macleod, 1945) جزءاً من خطاب وطني صيغ في سياقات سياسية تسعى إلى ترسيخ صورة الولايات المتحدة كقوة صاعدة. تميل هذه الكتابات إلى استخدام لغة بطولية وتبريرية تُهمّش الجوانب الدبلوماسية والاقتصادية، وتقدّم الحرب بوصفها مواجهة بين "الحرية" و"القرصنة". ومن خلال قراءتها في ضوء النقد ما بعد الكولونيالي، يتضح أنها سرديات تاريخية، تعمل كأدوات رمزية لتثبيت الهوية الأمريكية في مواجهة "الآخر المتوسطي". إن هذا الوعي النقدي بالمصدر ضروري لفهم كيف يُنتج التاريخ داخل إطار أيديولوجي محدد.

لا يمكننا فهم نشأة أسطورة «إلى شواطئ طرابلس» بمعزل عن حاجة الأمة الناشئة إلى رموز تؤسس لهويتها. تشير نظرية «الأساطير التأسيسية» إلى أن المجتمعات غالبًا ما تلجأ إلى سرديات مبسطة ومؤثرة لتقديم تفسير جماعي لأصلها وقيمها (Simmons, 2003). وفي حالة الولايات المتحدة أوائل القرن التاسع عشر، لعبت هذه الأساطير دورًا حاسمًا في تحويل مجموعة من المستعمرات إلى أمة متخيلة ذات مصير مشترك (Anderson, 1983).

قامت هذه الأسطورة بوظيفتين رئيسيتين: أولاً، الإسقاط (Projection)، حيث تم تصوير "الآخر" (الدولة القرمانلية) على أنه همجي وغير حضاري، مما يبرر استخدام القوة العسكرية ويُسقط النقاط المظلمة في التاريخ الأمريكي (مثل العبودية والصراعات الداخلية) على العدو الخارجي. ثانيًا، التوحيد (Unification)، حيث قدمت قصة مشتركة من النصر والشجاعة تجمع بين الأمريكيين وتعزز من شرعية الدولة المركزية ومؤسساتها العسكرية، خاصة البحرية ومشاة البحرية. وسنعمل في هذا البحث على تحليل كيفية تجسد هاتين الوظيفتين في الخطابات الرسمية، والأدب الشعبي، والرموز العسكرية التي تلت أحداث 1805.

يستند البحث إلى مقاربتين نظريتين رئيسيتين:

1. الذاكرة الجمعية كما وصفها موريس هالبواكس (Halbwachs, 1950)، والتي ترى أن الجماعات تعيد بناء الماضي وفق حاجات الحاضر السياسي والرمزي.[5]

2. الأسطورة التأسيسية كما تناولها بينيديكت أندرسون (Anderson, 1983) في مفهوم "الجماعات المتخيلة"، إذ تُستخدم السرديات البطولية لتثبيت هوية الأمة.[6]

من خلال هذا الإطار، تُفهم «شواطئ طرابلس» بوصفها بناءً رمزيًا لذكريات مختارة، لا توثيقاً موضوعياً لحدث عسكري.

السياق التاريخي: سرديتان متضاربتان

يمكننا النظر لهذا السياق من وجهتي نظر مختلفتين، -1 وجهة نظر الباشا القرمانلي كحاكم يسعى لفرض سيادة دولته. -2. وجهة النظر الأمريكية التي سعت منذ البداية لتصوير أي مقاومة لمصالحها على أنها «قرصنة». كلاهما ينطلق من أساس واحد في بناء الدولة «الولادة والتأسيس والقوة وفرض الهيمنة الخارجية».

5 - الذاكرة الجمعية (Collective Memory): مفهوم سوسيولوجي بلوره موريس هالبواكس، ومفاده أن ذاكرة الجماعة ليست سجلاً تاريخياً ثابتاً وموضوعياً، بل هي عملية بناء اجتماعي مستمرة. أي أن الجماعات (كالأمم أو الأحزاب) تعيد تشكيل رواياتها عن الماضي وتنتقي منها ما يتوافق مع هويتها واحتياجاتها السياسية والرمزية في الحاضر، مما يعني أن الحاضر هو الذي يحدد شكل الماضي الذي نتذكره.

6 - الأسطورة التأسيسية (Foundational Myth): في سياق نظرية "الجماعات المتخيلة" لبينيديكت أندرسون، تُعد الأسطورة التأسيسية السردية البطولية (عن ثورة، أو شخصية مؤسسة، أو معركة فاصلة) التي تُبنى عليها الهوية الوطنية. وظيفتها الأساسية هي خلق رابط عاطفي وتاريخي مشترك بين ملايين الأفراد الذين لا يعرف بعضهم بعضاً، مما يجعلهم يتخيلون أنفسهم كجزء من كيان واحد متماسك (الأمة) له أصل ومصير مشترك.

دولة يوسف باشا القرمانلي

قبل أن يستقر حكم طرابلس ليوسف باشا القرمانلي، كانت رحلته للسلطة مليئة بالدم والمؤامرات والتدخلات الخارجية. بدأت القصة بالصراع العائلي، حيث قام يوسف، الابن الأصغر، باغتيال أخيه الأكبر وولي العهد «حسن بك» في عام 1790م. وبعد فترة من الفوضى والاحتلال المؤقت من قبل علي برغل، تمكن يوسف من استعادة طرابلس وتوحيدها تحت حكمه بحلول عام 1795م (فوليان، 1988، ص. 122). ومن ثم شرع في بناء دولة قوية، وكان محور استراتيجيته هو بناء قوة بحرية مهابة لا تمثل أداة للنهب كما تصفها المصادر الغربية، بل أداة لفرض السيادة وفرض الإتاوات على السفن المارة بالبحر المتوسط، وهو عرف دولي مارسته القوى الأوروبية ذاتها لقرون لتمويل خزائنها وحماية تجارتها.

كان طموح الباشا الأول هو جعل طرابلس قوة بحرية معترفاً بها، مما استلزم بناء أسطول قوي.

بناء الأسطول في عهد يوسف باشا القرمانلي

أدرك يوسف باشا القرمانلي أن تراجع قوة طرابلس الاقتصادية منذ منتصف القرن الثامن عشر يعود بشكل أساسي إلى إهمال بناء قوتها البحرية، مما أفقدها العائدات الكبيرة التي كانت تجنيها دول شمال أفريقيا الأخرى من خلال نظام الجزية والفدية المفروض على السفن الأوروبية. ومن أجل استعادة هذا المصدر الحيوي للدخل وتعزيز مكانة دولته، اتخذ الباشا قراراً استراتيجياً بإعادة بناء أسطول بحري قوي وتفعيله ليكون أداة رئيسية في سياسته الخارجية والاقتصادية (فوليان، 1988، ص. 41).

بدأ الباشا مشروعه الطموح بخطوات عملية ومدروسة؛ فكانت أولى أولوياته تأمين المدينة من خلال ترميم الحصون المهجورة وتجهيزها بحوالي 70 مدفعاً. ثم شرع في أواخر عام 1795 في إصلاح السفن القديمة التي خلفها الحاكم السابق علي باشا، مع إضافة سفن جديدة إلى الأسطول. وخلال عام واحد فقط، تضاعفت القوة البحرية لطرابلس بشكل ملحوظ، وهو ما لفت انتباه السلطان العثماني الذي دعم هذا التوجه بإرسال سفينتين مجهزتين بالمدفعية، بالإضافة إلى مواد خام أساسية لصناعة الأشرعة والحبال، كما أصدر فرماناً يبارك فيه حكم يوسف باشا ويرفع من مكانة طرابلس (فوليان، 1988، ص. 44).

استمر الأسطول في النمو بشكل متسارع، فبين عامي 1798 و1800 وصل قوامه إلى

إحدى عشرة سفينة، وبحلول عام 1803 ارتفع العدد إلى ثلاث عشرة سفينة مسلحة. ومع نهاية العقد الأول من حكمه، وتحديداً في عام 1805، كان أسطول طرابلس يتألف من 24 سفينة حربية وعدة زوارق، مما جعل طرابلس «جزائر جديدة» وقوة بحرية ضاربة يُحسب لها حساب في البحر المتوسط (فوليان، 1988، ص. 45).

اعتمد تنظيم البحرية في عهد يوسف باشا على نظام بسيط وفعال. كان كل «ريّس» (قبطان) يقود سفينته وطاقمه الذي يتراوح بين 20 إلى 30 رجلاً، ويخضع جميع الرياس لقيادة «أمير البحر»، وهو أعلى منصب في البحرية. وقد شغل هذا المنصب طوال عهد يوسف باشا الرايس مراد، الذي لم تقتصر مهامه على قيادة الأسطول، بل شملت أيضاً رئاسة الجمارك ومراقبة حسابات الموانئ (فوليان، 1988، ص. 45). كان لافتاً اعتماد الباشا على خبرات الأوروبيين المنشقين الذين انضموا لخدمته هرباً من بلادهم أو بحثاً عن المغامرة، حيث وجدوا في البحرية الطرابلسية المتنامية فرصة لإثبات مهاراتهم الملاحية. وأبرز مثال على ذلك هو الاسكتلندي بيتر ليسلي، الذي أسلم وتسمى باسم «مراد رايس» وعينه

لم يكن دور قادة البحرية مقتصراً على الجانب العسكري، بل امتد ليشمل نفوذاً سياسياً كبيراً داخل الدولة وفي علاقاتها الخارجية. فقد كان «رايس البحرية» عضواً بارزاً في الديوان ويحتل المرتبة الثالثة في هرم السلطة بعد الباشا والآغا. كما لعبوا دوراً محورياً في إدارة الشؤون الخارجية، حيث كان الباشا يستشيرهم بانتظام في علاقات طرابلس مع الدول الأوروبية. وكان أمير البحر، الرايس مراد، مساعداً دائماً للباشا في المفاوضات مع المبعوثين الأوروبيين. علاوة على ذلك، كان يتم تكليف بعض الرياس بمهام دبلوماسية كسفراء ومبعوثين خاصين إلى الدول الأوروبية ودول شمال أفريقيا الأخرى (فوليان، 1988، ص. 47-46).

بمجرد أن أصبحت البحرية قوة فاعلة، بدأ الباشا في جني ثمار استثماره. فقد أجبر الدول الأوروبية على تجديد اتفاقياتها مع طرابلس وتقديم الهدايا والإعانات المالية. فعلى سبيل المثال، دفعت إسبانيا 20,000 دولار وقدمت سفينة وحرفيين مهرة، بينما دفعت البندقية وفرنسا مبالغ مالية وقدمتا سفناً مجهزة. أما الدول التي ترددت في الاستجابة، مثل السويد والدنمارك، فقد واجهت سفنها عمليات الأسر، مما اضطرها في النهاية إلى دفع مبالغ ضخمة بلغت 100,000 دولار لكل منهما لاستعادة سفنها وأسراها، مع التعهد بدفع إعانة سنوية (فوليان، 1988، ص. 47).

كانت البحرية المصدر الأكثر ربحية لخزينة طرابلس خلال تلك الفترة. فالأرقام المذكورة لا تشمل القيمة الكاملة للغنائم والهدايا العينية من مجوهرات وذخائر. وفي المقابل، كانت تكاليف تشغيل الأسطول منخفضة نسبياً، لأن جزءاً كبيراً من سفنه كان يُقدَّم كهدايا من الدول الأخرى أو يتم الاستيلاء عليه من سفن تجارية أوروبية وتحويله إلى سفن حربية، مما جعل صافي الربح المتحقق من عمليات البحرية مرتفعاً للغاية (فوليان، 1988، ص. 49-47).

وقد استغل هذا الاسطول لكسب اعتراف دولي بطرابلس من القوى الأوروبية، وكذلك من أمريكا. كما استُخدم الأسطول لتوفير إيرادات سيادية مستمدة من الرسوم المفروضة على الملاحة البحرية، والتي تصفها الرواية الأمريكية بـ»القرصنة». وبحلول عام 1805، أصبحت طرابلس قوة يُحسب لها حساب في البحر الأبيض المتوسط. لاحقاً، سعى الباشا لتوحيد البلاد سياسياً وتوسيع نفوذه، لكنه واجه تحديات اقتصادية متزايدة، ليس فقط بسبب الضغوط الدولية لإنهاء نظام الإتاوات، بل أيضاً بسبب عدم التزام بعض الدول، وعلى رأسها الولايات المتحدة، بتعهداتها المالية (فوليان، 1988).

جدول الأتاوات والإعانات المالية المقدمة لطرابلس.

الدولة	المبالغ المالية المدفوعة	المساعدات العينية والهدايا	السنة / ملاحظات
الدولة العثمانية	-	• سفينتان حربيتان (إحداهما بـ 24 مدفعاً والأخرى بـ 3). • مواد خام (قماش القنب، حبال). • فرمان بالمصادقة على حكمه.	1797
إسبانيا	• 20,000 دولار. • قدرت قيمة الهدايا الإجمالية بحوالي 100,000 دولار.	• سفينة حربية. • 18 من الحرفيين المهرة للعمل في أحواض بناء السفن.	1796 - 1795

البندقية	• 4,000 سيكوينز (عملة البندقية) كإعانة متأخرة. • 2,000 سيكوينز لتجديد الاتفاقية.	-	1795
فرنسا	• 25,000 دولار.	• أثاث قُدرت قيمته بـ 10,000 دولار. • سفينتان حربيتان (واحدة بـ 20 مدفعاً والأخرى بـ 14). • سفينة حربية أخرى (قُدمت لاحقاً).	1796 و 1802
السويد	• 100,000 دولار (لاستعادة السفن والأسرى).• 5,000 دولار كإعانة سنوية (تمت زيادتها لاحقاً إلى 8,000 دولار).• 158,000 دولار (لتسوية الخلافات).	-	1797-1798 و 1802
الدانمارك	• 100,000 دولار (لاستعادة السفن والأسرى).• 5,000 دولار كإعانة سنوية.• 13,000 دولار (بسبب مخالفة جوازات السفر).• 40,000 دولار إضافية وتعهد بـ 5,000 دولار سنوياً.	-	1797-1799 و 1802
هولندا	• 40,000 دولار.• تعهد بدفع 5,000 دولار كإعانة سنوية.	-	حوالي 1802
راجوسا	• 30,000 دولار. • 100,000 دولار إضافية.	-	1799 و 1800
سردينيا	• 40,000 دولار.	-	1799

نابولي	• ~9,000 دولار. • فدية للأسرى تراوحت بين 100 - 300 دولار للشخص.	-	1805
النمسا	• 84,000 دولار (كأرباح من سفن تم الاستيلاء عليها).	-	1796 - 1797

مصدر معلومات الجدول : (فوليان,1988 ص: 45 وما بعدها).

يوضح هذا الجدول كيف نجح يوسف باشا في تحويل الأسطول البحري الذي بناه إلى أداة ضغط سياسي ومصدر دخل هائل لخزينة الدولة، حيث كانت الدول الأوروبية تدفع مبالغ طائلة إما كهدايا لتجديد السلام أو كفدية لاستعادة سفنها وأسراها

الدولة الأمريكية الناشئة ومماطلاتها

بعد استقلالها، وجدت الولايات المتحدة أن سفنها التجارية في البحر المتوسط أصبحت ملزمة بالتعامل مع إيالات شمال إفريقيا (الجزائر، تونس، طرابلس)، التي كانت تمارس حقها السيادي في فرض رسوم مرور لضمان سلامة الملاحة. لسنوات، واضطرت الإدارات الأمريكية المتعاقبة، في ظل غياب بحرية قوية، إلى توقيع معاهدات ودفع هذه الإتاوات، وهو ما اعتبرته لاحقاً، مع تنامي قوتها، إهانة لكرامتها الوطنية (Wright & Macleod, 1945, p. 15).

التحول وفرض التغيير

جاء التحول مع وصول توماس جيفرسون إلى الرئاسة عام 1801. وتقدم الرواية الأمريكية جيفرسون على أنه البطل الذي رفض دفع الإتاوات من منطلق المبدأ. لكن الحقيقة أكثر تعقيداً؛ فالصراع لم يبدأ برفض أمريكي للمبدأ، بل بمماطلة أمريكية في الدفع. عندما طالب يوسف باشا القرمانلي الولايات المتحدة بالوفاء بالتزاماتها المالية المتأخرة وزيادة الإتاوة تماشياً مع ما تدفعه دول أخرى، ووجدت إدارة جيفرسون في ذلك ذريعة لتطبيق رؤيتها التوسعية. وكما يذكر فوليان، فإن أمريكا هي من تأخر في سداد التزاماتها مع باشا طرابلس، ولم تدفع ما تم الاتفاق عليه (فوليان، 1988). وإعلان يوسف باشا الحرب بقطعه سارية العلم الأمريكي ولم يكن هذا عملاً عدوانياً مفاجئاً، بل كان رداً على عدم احترام أمريكا للمعاهدات المبرمة. وكانت تلك الشرارة التي بدأت الحرب البربرية الأولى. ورغم إرسال أسطول أمريكي لحصار طرابلس، فإن أسر الفرقاطة

«فيلادلفيا» عام 1803 كشف عن فشل الاستراتيجية الأمريكية، وفتح الباب أمام حلول يائسة وغير تقليدية.

حملة درنة

لتقييم الأسطورة، من الضروري فحص السياق التاريخي للصراع بين الولايات المتحدة ودولة يوسف باشا القرمانلي. تشير السجلات الأمريكية، مثل مذكرات ويليام إيتون (Prentiss, 1813)، إلى أن الحرب بدأت ردًا على مطالب القراصنة بدفع فدية، مما دفع الرئيس توماس جيفرسون لإرسال أسطول بحري (London, 2005). ومع ذلك، تقدم المصادر الأوروبية والليبية، مثل أعمال إرنستو روسي (Rossi, 1967)، رؤية مختلفة، حيث تُعتبر هذه الأفعال جزءًا من نظام اقتصادي وسياسي معترف به في البحر المتوسط آنذاك يتضمن الحرب والتجارة والرق، وليست «إرهابًا» بحتًا (Bono, 2005).

أما بالنسبة لمعركة درنة، فبينما تؤكد الروايات الأمريكية على شجاعة مسيرة إيتون التي قطعت حوالي 800 كيلومتر في الصحراء، وعلى النصر الحاسم الذي أدى إلى «تحرير» حوالي 60 أسيرًا أمريكيًا (London, 2005, p. 240)، فإن هذا التأثير الاستراتيجي يُوضع موضع تساؤل. فمن ناحية، لم تكن المعركة الحاسمة في الحرب، التي انتهت بمعاهدة سلام دفعت فيها الولايات المتحدة فدية. ومن ناحية أخرى، يغفل هذا السرد عن حقيقة أن معظم القوات المقاتلة كانت من المرتزقة والمتمردين المحليين، وليس فقط القوات الأمريكية (Wright & Macleod, 1945). إن هذا التباين بين الرواية البطولية والواقع المعقد يشكل جوهر التلاعب في الذاكرة التاريخية الذي تسعى هذه الدراسة لكشفه.

وذكر ايتون في مذكراته حجم القوات التي تجمعت في هذه الحملة فقال:

[.... 8 مارس: رتبنا القافلة ونظمنا قواتنا التي تألفت من: تسعة أمريكيين (بمن فيهم الملازم أوبانون والسيد بيك وضابط صف وستة من مشاة البحرية)، وسرية مدفعية من خمسة وعشرين رجلاً بقيادة «سليم كومب»، وسرية من ثمانية وثلاثين يونانياً بقيادة القبطان «لوكو يلوفيتش». أما حاشية الباشا فبلغت نحو تسعين رجلاً، ومع انضمام مجموعة من فرسان العرب تحت إمرة الشيخ الطيب بن محمد، وسائقي الجمال والمشاة، بلغ إجمالي عددنا نحو أربعمائة رجل. تحركت القافلة المكونة من 107 جمل وبعض الحمير في الحادية عشرة والنصف صباحاً، وقطعنا خمسة عشر ميلاً ثم خيمنا على جرف مرتفع عند شاطئ البحر حيث تتوفر مياه جيدة.] (Prentiss, 1813).

أثر معركة درنة

تروج الرواية الغربية أن الانتصار في درنة أضعف موقف حاكم طرابلس بشكل كبير وأجبره على التفاوض. لكن هذا الطرح يتجاهل أن يوسف باشا كان قد سئم بالفعل من الحرب الطويلة والمكلفة، ومن مماطلة الأمريكيين في التوصل إلى تسوية. فبينما كان وليام إيتون يحتفل بنصره المحدود في درنة ويحلم بالزحف نحو العاصمة، كان المفاوض الأمريكي توبياس لير يبرم معاهدة سلام مع يوسف باشا. هذه المعاهدة، التي يعتبرها الأمريكيون انتصاراً، نصت على إطلاق سراح أسرى سفينة «فيلادلفيا» مقابل فدية مالية قدرها 60 ألف دولار، والتخلي التام عن قضية حليفهم أحمد باشا القرمانلي (London, 2005, p. 240).

إن دفع الفدية بحد ذاته هو دليل قاطع على أن الولايات المتحدة لم تكن في موقع المنتصر المطلق. لقد كان يوسف باشا هو من حقق هدفه الأساسي: الحصول على الأموال وإنهاء الحصار. أما التخلي عن أحمد باشا، فيكشف عن الانتهازية في السياسة الأمريكية، ويؤكد أن حملة إيتون لم تكن سوى ورقة ضغط محدودة التأثير تم التخلص منها بسهولة.

ومما ينسف الأسس التي قامت عليها أسطورة النصر الحاسم في درنة، هو التوقيت الفعلي للمعركة نفسها. فكما يوثق المؤرخ الحديث تشيب ريد (Chip Reid)، فإن القتال لم يكن هو الذي حسم نتيجة الحرب، بل جاء كحدث لاحق للحل الدبلوماسي. ويذكر ريد بشكل قاطع: **"كان ذلك القتال الأخير في الحملة، وقد وقع بعد خمسة أيام من انتهاء الحرب رسميًا (Reid, 2017). إن هذه الحقيقة التاريخية تقوّض بشكل جذري السردية الأمريكية التي تربط بين الهجوم على درنة وإجبار يوسف باشا على التفاوض؛ فالقتال الذي تم الاحتفاء به كـ «نصر» كان في جوهره مجرد مناوشة وقعت بعد أن تم بالفعل إبرام معاهدة السلام وتحديد مصير الأسرى ودفع الفدية. وبالتالي، فإن القيمة الاستراتيجية للمعركة كانت منعدمة، مما يؤكد أن أهميتها لم تنبع من تأثيرها العسكري الفعلي، بل من قابليتها للاستثمار الرمزي والدعائي لاحقًا.

ويصف Prentiss شعور إيتون بالخيانة، ليس لأنه كان على وشك تحقيق نصر حاسم، بل لأن أحلامه الشخصية بالمجد قد تحطمت. وعبارته: «لقد تخلوا عنا عند أبواب النصر، واستبدلنا المجد بسلام رخيص" (Prentiss, 1813)، تعكس غروره الشخصي أكثر مما

تعكس الواقع الاستراتيجي. فالسلام لم يكن «رخيصاً»، بل كلف الخزينة الأمريكية مبلغاً كبيراً، وكان انتصاراً دبلوماسياً ليوسف باشا.

صناعة الأسطورة

إن فهم عملية تحويل حملة درنة إلى أسطورة وطنية يتطلب النظر إلى ما هو أبعد من ساحة المعركة، وتحديدًا إلى السياق السياسي الداخلي في واشنطن. لم تكن صناعة الأسطورة مجرد نتيجة ثانوية للحرب، بل كانت ضرورة مؤسسية لبقاء فيلق مشاة البحرية نفسه، الذي كان يواجه خطر الإلغاء من قبل الكونغرس. ويوضح ريد (Reid, 2017) أن قيادة المارينز كانت تبحث بشكل واعٍ عن قصة بطولة لتعزيز صورتها وتبرير وجودها، حيث يقول: «إن وصف هجوم أوبانون وبسالة المارينز في القتال سيمنح وارتون [قائد المارينز آنذاك] الفوز الدعائي الذي كان يحتاجه». يكشف هذا التحليل أن تضخيم دور ثمانية جنود فقط في عملية محدودة لم يكن احتفاءً تلقائياً بالشجاعة، بل كان استثماراً مدروساً في «نصر دعائي». وأيضا كان البعض يذهب لإظهار قدرة أمريكا على التدخل عسكرياً لحماية تجارتها ومواطنيها على المستوى العالمي، وهو ما يخدم أهداف السياسة الخارجية للجمهورية الناشئة أكثر من مجرد إنقاذ فيلق.

ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الجنرال ويليام إيتون، في خضم طموحاته العسكرية، لم يكن يسعى بالضرورة إلى هندسة أسطورة قومية عابرة للأجيال؛ بل كانت دوافعه محكومة بهاجس النصر الميداني المباشر وإثبات جدارته الشخصية كقائد عسكري. إن عملية تحويل «مناوشة درنة» إلى أيقونة مؤسسية لم تكن من صنيع القادة على أرض المعركة، بل كانت نتاجاً لقرارات سياسية ودعائية اتُخذت لاحقاً في أروقة مراكز القرار في واشنطن. فقد وجد الساسة وصناع القرار في سردية إيتون «مادة خاماً» مثالية لتشكيل وعي جمعي يخدم المصالح القومية الناشئة وتبرير الوجود العسكري الخارجي. وهو ما يؤكد أن الأسطورة لم تولد في صحراء برقة، بل صِيغت بدقة في مكاتب السياسيين لتلبية احتياجات الدولة في الحاضر. (Prentiss, 1813).

و يبرز التساؤل المحوري: كيف تم تحويل هذه الحملة، التي انتهت بتسوية دبلوماسية مخيبة للآمال وبفدية مدفوعة، إلى أسطورة خالدة ومصدر فخر وطني؟

لقد كانت عملية «صناعة الأسطورة» عملية واعية ومنهجة، يمكن تفكيكها إلى العناصر التالية:

الحاجة إلى أسطورة تأسيسية: سد الفراغ التاريخي

كانت الولايات المتحدة في مطلع القرن التاسع عشر دولة فتية، تعاني من «عقدة نقص» تاريخية تجاه القوى الأوروبية العريقة ذات الماضي الإمبراطوري الحافل بالفتوحات والأساطير العسكرية. لم يكن لديها «ترافلغار» بريطاني أو "أوسترليتز" فرنسي. كانت بحاجة ماسة إلى سردية بطولية خاصة بها، تتجاوز حدود حرب الاستقلال، وتثبت أنها ليست مستعمرة متمردة، بل قوة قادرة على فرض إرادتها خارج حدودها. جاءت حملة درنة لتقدم المادة الخام المثالية لهذه السردية. لقد كانت أول مغامرة عسكرية خارجية، وهو ما جعلها قابلة للتضخيم والتوظيف الرمزي بسهولة. ففي غياب منافسين آخرين، أصبحت هذه العملية الصغيرة "ملحمة" بالضرورة.

عناصر صناعة الأسطورة في حملة درنة:

لتحويل الواقع المعقد إلى أسطورة بسيطة ومؤثرة، تم التركيز على عناصر محددة وتضخيمها:

شخصية البطل المغامر: وتم تقديم ويليام إيتون كدبلوماسي أو وقائد عسكري محترف، بل أيضا كشخصية شبه روائية، مغامر وجريء يجسد الروح الأمريكية الجديدة: فردية، طموحة، ومستعدة لتحدي المستحيل. ومذكراته، التي نشرت لاحقاً، ساهمت في ترسيخ هذه الصورة، متجاهلة جوانب شخصيته المتهورة والمثيرة للجدل. لقد أصبح إيتون النموذج الأولي للبطل الأمريكي الذي يذهب إلى أراضٍ بعيدة «لتحقيق العدالة".

تصوير «الآخر» كعدو همجي، وكانت الرواية الأمريكية حريصة على تجريد الصراع من سياقه السياسي والاقتصادي (نزاع حول الإتاوات والمعاهدات)، وتقديمه كصراع حضاري بين «الجمهورية الحرة» و«القراصنة البرابرة». هذا التوصيف لم يكن بريئاً؛ فقد هدف إلى نزع الشرعية عن يوسف باشا كنظير سيادي، وتبرير التدخل العسكري كعمل «تأديبي» ضد خارجين عن القانون. هذا الإطار يمحو حقيقة أن يوسف باشا كان يدافع عن مصالح دولته وفق الأعراف السائدة آنذاك.

الرحلة الملحمية كاختبار للشخصية الوطنية؛ وتم التركيز بشكل كبير على مسيرة الـ 800 كيلومتر عبر الصحراء. هذه الرحلة تحولت في الذاكرة الأمريكية إلى تجسيد لوجستي صعب واختبار أسطوري للإرادة والتحمل والصمود. وأصبحت الصحراء رمزاً

لكل العقبات التي يمكن للروح الأمريكية أن تتغلب عليها. إنها قصة البقاء والانتصار ضد الطبيعة القاسية والعدو المتربص، وهي سردية محببة في الثقافة الأمريكية.

اللحظة الأيقونية: رفع العلم؛ يعتبر رفع العلم الأمريكي على قلعة درنة ذروة الأسطورة. هذه اللحظة، التي تم تخليدها في لوحات فنية وكتابات لا حصر لها، حملت دلالة رمزية هائلة. لقد كانت تعبيراً مرئياً عن وصول القوة الأمريكية إلى «العالم القديم». لم يعد العلم الأمريكي يرفرف فقط فوق أراضي أمريكا الشمالية، بل أصبح قادراً على فرض وجوده في «شواطئ طرابلس». هذا الفعل البسيط غطى على كل التعقيدات السياسية للمعاهدة اللاحقة.

ترسيخ الأسطورة

لم تكن الأسطورة لتستمر لولا تبنيها وتحويلها إلى جزء من العقيدة المؤسسية، خاصة داخل فيلق مشاة البحرية. هذه العملية لم تكن عفوية، بل تمت عبر قرارات رسمية كرّست رمزين أساسيين مرتبطين مباشرة بمعركة درنة: سيف المماليك والنشيد الرسمي.

أولاً - من التذكار إلى الرمز: سيف المماليك كأداة للربط التاريخي

إن أحد أقوى الأدوات في صناعة الأسطورة هو تحويل حدث عابر إلى تقليد مادي ومستمر. هذا بالضبط ما حدث مع «سيف المماليك»، الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من هوية ضباط المارينز. الرواية الرسمية، التي تروج لها المؤسسة العسكرية، تقول إن هذا السيف هو نسخة طبق الأصل من السيف الذي أهداه «أحمد باشا القرمانلي» إلى الملازم «بريسلي أوبانون" تقديراً لشجاعته في معركة درنة (Simmons, 2003, p. 45).

إلا أن مؤرخين بارزين يشككون في صحة هذه الرواية التي تفتقر إلى الإثبات. ويشير المؤرخ العسكري ج. روبرت موسكين إلى غياب أي سجلات معاصرة من يوميات إيتون أو تقارير أوبانون تثبت واقعة الإهداء هذه، مما يرجح أنها أسطورة لاحقة تم نسجها لتعزيز الارتباط البطولي بالحدث (Moskin, 1992, p. 97). سواء كانت القصة حقيقية أم مختلقة، فإن الأهم هو أن المؤسسة العسكرية تبنتها ورسختها.

الوصف والاعتماد الرسمي: يتميز السيف بمقبضه المصنوع من العاج أو مادة شبيهة به، وواقيته المتصالبة الشكل، ونصله المنحني المستوحى من السيوف العثمانية والمملوكية (McClellan, 1932, p. 112). تم ترسيخ هذا الرمز بشكل رسمي في عام 1825،

عندما أصدر القائد الخامس للمارينز، العميد أرتشيبالد هندرسون، قراراً باعتماد سيف المماليك ليكون السيف الرسمي لجميع ضباط الفيلق. ورغم أنه تم استبداله لفترة وجيزة بنموذج آخر في منتصف القرن التاسع عشر، إلا أنه، وبسبب إصرار الضباط وارتباطهم به، أُعيد إقراره رسمياً في عام 1875 ليستمر حتى يومنا هذا (U.S. Marine Corps History Division, n.d.). إن هذا القرار المؤسسي يجبر كل ضابط على حمل قطعة من «أسطورة درنة» معه، مما يحول السيف من مجرد سلاح احتفالي إلى أداة لغرس العقيدة، وربط ملموس بذلك الماضي المؤسس الذي تم تضخيمه بعناية.

ثانياً - التكريس النهائي: نشيد المارينز كعقيدة مسموعة

تُعد عملية تحويل حدث تاريخي محدود إلى رمز وطني خالد الآلية الأبرز في ترسيخ الأسطورة، ويتجلى ذلك بوضوح في تبني نشيد المارينز لذكرى المعركة. لم تكن هذه الإضافة تكريم عابر وايضا خطوة حاسمة في تحويل واقعة تكتيكية صغيرة إلى حجر زاوية في هوية الفيلق بأكمله. وكما يشير ريد (Reid, 2017)، فإن هذه الحملة «أدت إلى ظهور السطر الثاني من نشيد المارينز - '... إلى شواطئ طرابلس' - وهو تكريم من السلاح لدور أوبانون في الحملة». إن هذا التكريس الرسمي يكشف عن آلية صناعة الذاكرة العسكرية الأمريكية بامتياز: حيث يتم انتقاء حدث هامشي، وتجريده من سياقه المعقد، ثم إعادة إنتاجه كـ «أصل بطولي» يُغرس في وعي الأجيال المتعاقبة من الجنود. فالنشيد هنا لا يعكس حقيقة ما جرى، بل يعمل كأداة فعالة لترسيخ أسطورة وظيفتها بناء مجد مؤسسي لا يمت للوقائع التاريخية الدقيقة بصلة.

إذا كان السيف هو الرمز المادي للأسطورة، فإن النشيد هو تكريسها الصوتي وعقيدتها المسموعة. تعود أصول النشيد إلى منتصف القرن التاسع عشر، حيث تتفق معظم الروايات التاريخية على أن كلماته كُتبت بواسطة أحد جنود المارينز أثناء خدمتهم في المكسيك، مما يفسر الجمع بين «قاعات مونتيزوما" و"شواطئ طرابلس" (Simmons, 2003, p. 320). أما اللحن، فمن المفارقة التاريخية التي تكشف عن الطبيعة المركبة لمثل هذه الرموز الوطنية، أنه مأخوذ من أوبرا فرنسية كوميدية للمؤلف جاك أوفنباخ بعنوان "Geneviève de Brabant"، والتي عُرضت لأول مرة في باريس عام 1867 (Fuld, 2000, p. 358).

الاعتماد الرسمي: لسنوات، ظل النشيد يُغنى بشكل غير رسمي كجزء من تقاليد الفيلق. لكن نقطة التحول الحاسمة جاءت في 21 نوفمبر 1929، عندما أصدر القائد

العام الثالث عشر لفيلق مشاة البحرية، الجنرال جون أ. لوجون (John A. Lejeune)، الأمر العسكري رقم 4، الفقرة 3 (Marine Corps Order No. 4, Paragraph 3). نص هذا الأمر بوضوح على أن هذه الأنشودة هي «النشيد الرسمي لمشاة البحرية الأمريكية»، وفقاً لما هو موثق في سجلات قسم التاريخ في مشاة البحرية (U.S. Marine Corps History Division, n.d.). هذا القرار الإداري كان تتويجاً لعملية طويلة من صناعة الأسطورة. وفي عام 1942، تم تعديل طفيف على الكلمات بقرار من القائد العام لتصبح "in the air, on land, and sea" لتعكس تطور دور المارينز. لكن السطر الأول الخالد "From the Halls of Montezuma, To the Shores of Tripoli" بقي دون مساس، كحجر زاوية لا يمكن تغييره. إن هذا التكريس الرسمي يعني أن كل جندي من المارينز يُلقّن منذ يومه الأول أن تاريخه يبدأ من «شواطئ طرابلس»، مما يحول حدثاً تاريخياً معقداً إلى مصدر فخر مطلق ورمز خالد

على المستوى الرمزي، لا تمثل "شواطئ طرابلس" موقعاً عسكرياً فحسب، بل تتحول إلى رمز للانبعاث الخارجي ولتجاوز الحدود الجغرافية. لقد أصبح رفع العلم الأمريكي في درنة لحظة ولادة رمزية للذات الإمبراطورية، تُجسّد الإرادة في التوسع والسيطرة. ومن هذا المنظور، تتحول الأسطورة من حدث في الذاكرة التاريخية إلى منظومة دلالية تبرّر القوة وتمنحها بعداً أخلاقياً. إن تحليل هذا البعد الرمزي يكشف كيف يتم تحويل واقعة محدودة الأثر إلى خطاب دائم يعيد إنتاج نفسه داخل الذاكرة المؤسسية والعسكرية للأمة الأمريكية.

توظيف الأسطورة في الذاكرة الليبية

أسطورة القوة والسيادة

"إذا كانت السردية الأمريكية قد وظفت درنة كرمز للتدخل والانتصار على 'الهمجية'، فإن الذاكرة الليبية المعاصرة، وخاصة بعد الاستقلال، قامت بعملية 'صناعة أسطورة' موازية. تم تحويل فترة يوسف باشا القرمانلي، لا سيما قوته البحرية ونجاحه في فرض الإتاوات وجمعها من القوى الأوروبية، إلى رمز للسيادة الوطنية والكبرياء الإفريقي في مواجهة الهيمنة الأجنبية (كما يظهر جزئياً في تحليل فوليان). وكثير من المصادر، وأيضا تم تمجيدها في مسلسلات تلفزيونية محلية. هذا التوظيف التاريخي يعكس حاجة الأمة الحديثة إلى فترة ذهبية تؤكد قوتها العسكرية والاقتصادية، محوّلة بذلك نظام الإتاوات إلى «رسوم سيادية» و**«دفاع عن المصالح»**. إن هذه الأسطورة المضادة تُظهر

أن عملية انتقاء وتضخيم الأحداث التاريخية لخدمة هوية الحاضر ليست حكراً على الولايات المتحدة، بل هي ممارسة كونية في بناء الذاكرة الجماعية.»

الإرث الأيديولوجي للأسطورة وتوظيفها في السياسة التوسعية

لم تقتصر الأسطورة المؤسسة التي صُنعت حول «شواطئ طرابلس» على دورها كمرسِّخ للهوية داخل فيلق مشاة البحرية، بل تجاوزت ذلك لتصبح رخصة أيديولوجية للتدخل العسكري الأمريكي عبر القارات. لقد وفّرت العبارة المختصرة والمدوية («إلى شواطئ طرابلس») إطاراً سردياً جاهزاً لتبرير كل عمل عسكري لاحق بوصفه امتداداً لـ «نضال الأمة ضد القوى المُعادية للحرية»، بوصفه امتداداً لـ «نضال الأمة ضد القوى المُعادية للحرية»، متجاوزة بذلك السياق السياسي أو البُعد الجغرافي. وعلى مرّ القرنين التاليين، جرى توظيف هذا الإرث لتأطير حملات المارينز من "قاعات مونتيزوما" (حرب المكسيك) إلى أدغال المحيط الهادئ (الحرب العالمية الثانية)، ومن ثم إلى صحارى الشرق الأوسط في العصر الحديث (كما في التدخلات في العراق وأفغانستان). وتكمن المفارقة التاريخية في استخدام الشعار نفسه لتبرير الوجود الأمريكي المتكرر في ليبيا بعد عقود طويلة، بما في ذلك خلال العمليات العسكرية التي نُفذت في القرن الحادي والعشرين. وهكذا، تثبت الأسطورة أن دورها الأساسي هو تحويل الذاكرة المحدودة (مناوشة درنة) إلى ذاكرة عابرة للزمان والمكان تخدم السياسة الأمريكية الطموحة والمستمرة نحو الهيمنة العالمية.

خاتمة

تفكيك الأسطورة وإعادة بناء الفهم التاريخي

من خلال المنهجية التي اعتمدناها وبالمقارنة بين المصادر الأولية (مثل خطابات جيفرسون ومذكرات إيتون) والثانوية، أعمال المؤرخين مثل لندن وسيمون، وأظهرت هذه الدراسة أن سردية «إلى شواطئ طرابلس» هي بناء أيديولوجي متعمد. على حساب التاريخ، لقد تم تبسيط الأحداث المعقدة وتضخيم إنجازات معينة، بينما تم إهمال عوامل حاسمة مثل دور القوات المحلية والطبيعة التفاوضية للصراع.

إن أسطورة "إلى شواطئ طرابلس" لا تختلف في بنيتها عن الأساطير التأسيسية التي نشأت في ثقافات أخرى، مثل أسطورة "ترافلغار" في بريطانيا أو "أوسترليتز" في فرنسا، حيث يتم تحويل حدث عسكري محدود إلى مرجع وطني دائم. تشترك هذه الأساطير في آلية واحدة تقوم على تحويل الانتصار الجزئي إلى سردية كلية تُدرّس وتُحتفى

بها بوصفها لحظة ميلاد للأمة. إن المقارنة بين هذه النماذج تكشف أن صناعة الذاكرة ليست فعلاً أمريكياً خاصاً، بل ممارسة كونية لإعادة إنتاج الشرعية السياسية من خلال الرمز التاريخي.

إن أهمية هذا التحليل تتجاوز نقد التاريخ الأمريكي؛ فهو يقدم نموذجًا لكيفية تشكل الذاكرة الجماعية عبر اختزال التاريخ في أساطير وطنية. ويكشف البحث أن هذه الأسطورة لا تخدم فقط في بناء الهوية، بل في تبرير السياسات العسكرية والتوسعية لاحقًا. وبالتالي، فإن فك شفرة هذه السرديات يعد خطوة ضرورية نحو فهم أكثر نضجًا ونقدًا للماضي، ويساعد في التعرف على كيفية استخدام التاريخ كأداة للسلطة في الحاضر. يوصي البحث بإجراء دراسات مقارنة مشابهة لأساطير تأسيسية أخرى في ثقافات مختلفة، لتعميق فهمنا للعلاقة المعقدة بين التاريخ والذاكرة والهوية.

قائمة المراجع

المراجع الأجنبية

Anderson, B. (1983). Imagined communities: Reflections on the origin .and spread of nationalism. Verso

Bono, S. (2005). Corsari nel Mediterraneo: Cristiani e musulmani fra .guerre, schiavitù e commerci. Mondadori

Fuld, J. J. (2000). The book of world-famous music: Classical, popular, .and folk. Dover Publications

Halbwachs, M. (1950). La mémoire collective. Presses Universitaires de .France

London, J. E. (2005). Victory in Tripoli: How America's war with the Barbary Pirates established the U.S. Navy and shaped a nation. John Wiley & .Sons

McClellan, E. N. (1932). Uniforms of the American Marines, 1775 to 1829. .U.S. Marine Corps Headquarters

Moskin, J. R. (1992). The U.S. Marine Corps story. Little, Brown and Com-

.pany

Prentiss, C. (1813). The life of the late Gen. William Eaton: Several years an officer in the United States' army, consul at the Regency of Tunis on the coast of Barbary, and commander of the Christian and other forces that marched

.Reid, C. (2017). Shores of Tripoli. Naval Institute Press

Simmons, E. H. (2003). The United States Marines: A history (4th ed.). .Naval Institute Press

U.S. Marine Corps History Division. (n.d.). Marine Corps traditions: The .Mameluke Sword

Wright, L. B., & Macleod, J. H. (1945). The first Americans in North Africa: William Eaton's struggle for a vigorous policy against the Barbary Pirates, .1799-1805. Princeton University Press

from Egypt through the desert of Barca, in 1805, and conquered the city .of Derne. E. Merriam & Co

المراجع العربية والمترجمة

فوليان، ك. (1988). ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي. منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.

روسي، إ. (1967)). تاريخ طرابلس وطرابلس الغرب من الفتح العربي حتى 1911 (م. خليفة، مترجم). دار الفكر. (العمل الأصلي نشر عام(1967).**بحث مترجم**

أحدث الأبحاث في جبل نفوسة (شمال ليبيا)

البيئة والثقافات من العصر الحجري الأوسط إلى العصر الحجري المتأخر وأولى اللقى النيوليتية[7]

مجموعة من المؤلفين[8]

مقدمة

أُطلق حديثًا مشروع بحثي أثري-بيئي جديد في غرب ليبيا، يتمحور حول دراسة التفاعل بين الإنسان والبيئة خلال عصور ما قبل التاريخ المتأخرة. يهدف هذا المشروع إلى سدّ الفجوة المعرفية المتعلقة بالتسلسل الثقافي والتغيرات البيئية في المناطق الداخلية من شمال إفريقيا، ولا سيما في منطقة جبل نفوسة.

يركّز المشروع على فترات زمنية تمتد من المرحلة البحرية النظيرية الثالثة (MIS 3) إلى العصر الحجري الحديث المبكر، مع اهتمام خاص بثقافات العصر الحجري المتأخر (LSA) والانتقال نحو النيوليت. وقد جرى تنفيذ البحث في إطار تعاون متعدد التخصصات، يجمع بين التحليل الجيولوجي-الجيومورفولوجي، والدراسات البيئية القديمة، والتحليل الأثري للصناعات الحجرية.

تركّزت الأبحاث الميدانية في عدد من الأودية والأحواض الواقعة في الهضبة الطرابلسية الشمالية، ولا سيما في مناطق وادي شكشوك، ووادي الزرقة، والمناطق المجاورة لها. وقد أُجريت مسوحات سطحية مكثفة، إلى جانب حفريات اختبارية محدودة، سمحت بتوثيق تسلسل طبقي واضح للرواسب، وربطه بالمكتشفات الأثرية.

تشير النتائج الأولية إلى أن هذه المناطق شهدت استيطانًا بشريًا متكررًا خلال فترات مناخية رطبة نسبيًا، تخللتها مراحل جفاف أدت إلى إعادة تنظيم أنماط الاستيطان

7 - هذا المقال هو نسخة مبسطة من بحث نشر في حوليات ليبيا القديمة Libya Antiqua الصادرة عن حولية مصلحة الآثار الليبية، السلسلة الجديدة - المجلد الخامس تم نشرها سنة 2010 رأينا إعادة نشرها مترجمة لأهميتها ونظن أنها الترجمة الأولى لهذا البحث.

8 - باربرا إي. باريش، إيلينا إيه. إيه. غارتشيا، كارلو جيراودي، غيدو لوكاريني، جوزيبي موتري / ترجمة قسم الترجمة والتوثيق

واستغلال الموارد. كما تُظهر البيانات وجود تباين ملحوظ في الأنماط الثقافية والصناعات الحجرية، ما يعكس استجابات بشرية مختلفة للتغيرات البيئية.

الإطار الجغرافي والبيئي

يقع جبل نفوسة على الحافة الشمالية للصحراء الكبرى، ويشكّل حدًا جيومورفولوجيًا واضحًا بين الهضبة الطرابلسية الساحلية والمناطق الصحراوية الداخلية. تتكون المنطقة من تعاقب طبقي معقد، يضم رواسب كلسية تعود إلى العصر الميوسيني، تعلوها رواسب فتاتية أحدث ناجمة عن عمليات تعرية ونقل مائي.

تخترق الهضبة شبكة من الأودية الجافة حاليًا، التي لعبت دورًا أساسيًا في تجميع الرواسب وفي توجيه النشاط البشري خلال فترات الرطوبة. وتشير التحاليل الجيولوجية إلى أن هذه الأودية كانت نشطة خلال فترات معينة من البلايستوسين المتأخر والهولوسين المبكر، ما وفر موارد مائية ونباتية جذبت المجموعات البشرية.

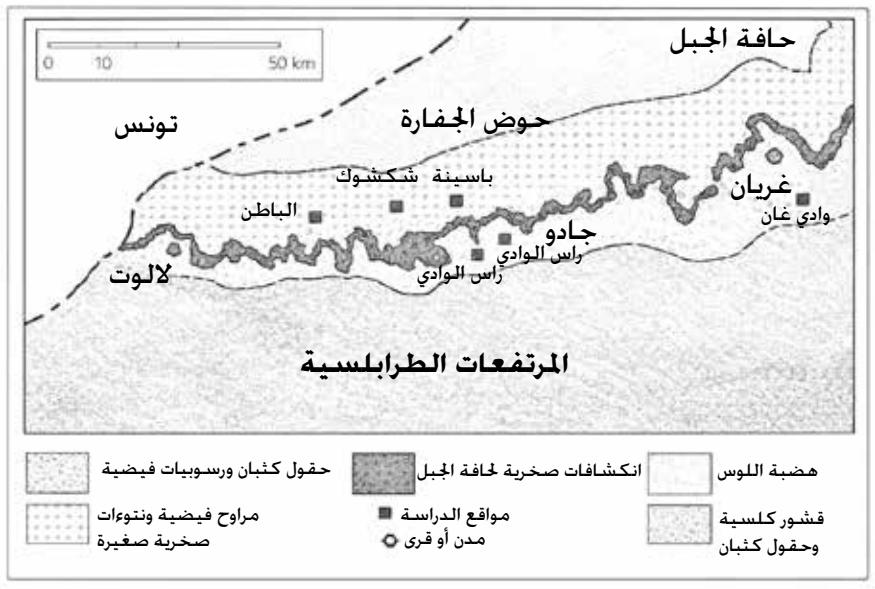

الإطار الجيولوجي والجيومورفولوجي لجبل نفوسة

تغطي رواسب الحوض الرسوبي في منطقة الدراسة صخور الأساس، والتي تتكوّن أساسًا من رواسب كلسية تعود إلى العصر الميوسيني. تعلو هذه الطبقات رواسب فتاتية رباعية، تتداخل فيها ترسيبات الأودية مع مواد منقولة بفعل الجاذبية. وتشير

البنية الطبقية إلى تعاقب مراحل من الترسيب المرتبط بالنشاط المائي، تخللتها فترات تعرية وانقطاع رسوبي.

تُظهر المقاطع الجيولوجية المدروسة في أودية شكشوك، والزرقة، وباسينة وجود وحدات رسوبية متميزة، تتكون من طبقات طمية ورملية وحصوية، غالبًا ما تكون متماسكة بواسطة قشرة كلسية (calcrete). ويُعد هذا النوع من القشور دليلاً على فترات من الاستقرار النسبي للسطح الأرضي، ترافقت مع ظروف مناخية شبه رطبة إلى جافة.

وقد أتاح تفسير هذه البيانات الجيولوجية إعادة بناء التطور البيئي للمناطق الداخلية من جبل نفوسة، وربط هذا التطور بالتحولات المناخية التي شهدتها شمال إفريقيا خلال البلايستوسين المتأخر.

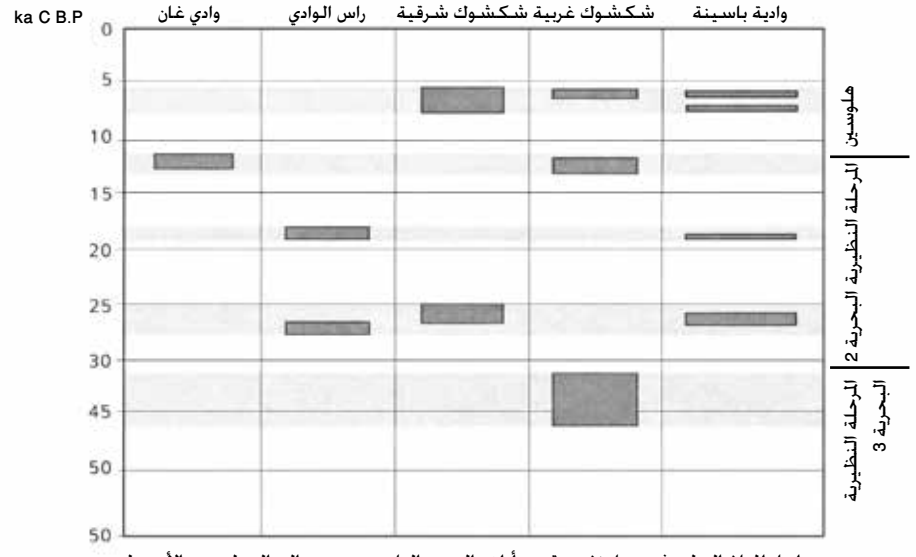

مراحل المناخ الرطب في جبل نفوسة من أواخر العصر البليستوسيني إلى الهولوسين الأوسط (نقلاً عن جيرودي 2009).

تفسير البيانات الجيولوجية والبيئية

تُشير المعطيات إلى أن منطقة جبل نفوسة خضعت لتأثيرات مناخية متذبذبة، تميّزت بتناوب فترات رطبة نسبيًا وأخرى جافة. ففي الفترات الرطبة، نشطت الشبكة الهيدروغرافية، ما أدى إلى ترسيب مواد فتاتية دقيقة في قيعان الأودية. أما خلال الفترات الجافة، فقد سادت عمليات التعرية، وتكوّنت قشور كلسية على أسطح الرواسب.

ألف سنة قبل الحاضر (مقاسة بالكربون المشع 14C)

وتُظهر التحاليل أن الترسيب في الأودية كان غالبًا مرتبطًا بأحداث مطرية قصيرة لكنها شديدة، تسببت في سيول مفاجئة قادرة على نقل كميات كبيرة من الرواسب. وقد لعبت هذه الأحداث دورًا مهمًا في تشكيل المشهد الطبيعي، كما أثرت مباشرة في إمكانيات الاستيطان البشري.

كما تُبرز الدراسة أن بعض التغيرات البيئية المسجّلة في جبل نفوسة تتوافق مع التحولات المناخية المعروفة على نطاق إقليمي، خاصة تلك المرتبطة بتقلبات المناخ في الصحراء الكبرى خلال أواخر البلايستوسين.

الفترة الوسطى من العصر الحجري (Middle Stone Age)

تم تسجيل بقايا تعود إلى العصر الحجري الأوسط في عدة مواقع ضمن منطقة الدراسة، خاصة في رواسب وادي شكشوك ووادي عين الزرقة. وتوجد هذه البقايا عادة داخل طبقات رسوبية مرتبطة بفترات رطبة نسبيًا، ما يشير إلى أن النشاط البشري كان مرتبطًا بتوفر الموارد المائية.

تتكون اللقى الحجرية المنسوبة إلى هذه الفترة أساسًا من رقائق وأدوات مصنوعة بتقنية النوى المحضَّرة، وهي خصائص تقنية تتوافق مع الصناعات المعروفة للعصر الحجري الأوسط في شمال إفريقيا. غير أن انتشار هذه اللقى يبدو محدودًا نسبيًا مقارنة بالفترات اللاحقة، ما قد يعكس كثافة استيطان أقل أو فترات إشغال قصيرة.

نهاية العصر الحجري الأوسط وبداية العصر الحجري المتأخر

تشير البيانات الطبقية إلى وجود فجوة أو انقطاع في الاستيطان البشري بين نهاية العصر الحجري الأوسط وبداية العصر الحجري المتأخر. ويُرجَّح أن يكون هذا الانقطاع مرتبطًا بتدهور الظروف البيئية، خاصة ازدياد الجفاف وانحسار الموارد المائية.

ومع ذلك، فإن بعض المواقع تُظهر استمرارية محدودة في النشاط البشري، ما يدل على قدرة مجموعات بشرية معينة على التكيّف مع الظروف البيئية القاسية، ربما من خلال استراتيجيات تنقل أكثر مرونة أو استغلال موارد بديلة.

العصر الحجري المتأخر (Late Stone Age – LSA)

تُعد بقايا العصر الحجري المتأخر الأكثر حضورًا وانتشارًا في منطقة الدراسة، وقد تم توثيقها في عدد كبير من المواقع السطحية الواقعة على ضفاف الأودية وعلى المصاطب

الرسوبية المرتفعة نسبيًا. ويُشير هذا الانتشار الواسع إلى مرحلة من الاستقرار البيئي النسبي، أتاحت ظروفها المناخية إمكانيات أفضل للاستيطان البشري.

ترتبط مواقع العصر الحجري المتأخر غالبًا بطبقات رسوبية تكونت خلال فترات رطبة أو شبه رطبة، حيث وفّرت الأودية موارد مائية موسمية ونباتات رعوية جذبت مجموعات الصيادين-الجامعين. ويبدو أن هذه المجموعات اعتمدت استراتيجيات استيطان مرنة، تجمع بين الإقامة المؤقتة والتنقل الدوري داخل المجال الجغرافي نفسه.

وادي عين الزرقة

يُعد وادي عين الزرقة من أهم المواقع التي كشفت عن تسلسل غني لمخلفات العصر الحجري المتأخر. وقد أظهرت المسوحات السطحية وجود تركيزات كثيفة من الأدوات الحجرية على جانبي الوادي، خصوصًا في المناطق القريبة من مجرى السيول القديم.

تشمل اللقى الحجرية رقائق صغيرة، ونصالًا دقيقة، وأدوات ميكروليتية، تُظهر مستوى تقنيًا متقدمًا يعتمد على التحكم في إنتاج الشفرات الصغيرة. ويُلاحظ أن هذه الأدوات غالبًا ما تكون مصنوعة من مواد صوانية محلية، ما يشير إلى استغلال مباشر للموارد الجيولوجية المتوفرة في المنطقة.

كما تم توثيق بعض الأدوات ذات الأشكال الهندسية، وإن كانت نادرة نسبيًا، وهو ما قد يعكس تنوعًا وظيفيًا في الأنشطة البشرية، مثل الصيد، والسلخ، ومعالجة النباتات.

وادي باسينة

يقع وادي باسينة في موقع استراتيجي يربط بين الهضبة الطرابلسية والمناطق الداخلية، وقد كشف عن عدد من مواقع العصر الحجري المتأخر ذات الطابع السطحي. تتميز هذه المواقع بتوزيع مبعثر للأدوات الحجرية، ما يوحي باستخدام الوادي كممر حركي أو كمجال نشاط موسمي.

تُظهر الأدوات المكتشفة في وادي باسينة تشابهًا تقنيًا مع تلك المسجلة في وادي عين الزرقة، إلا أنها أقل كثافة، وربما تعكس وظائف مختلفة أو فترات إشغال أقصر. وتشمل هذه الأدوات رقائق مشذبة، ونصالًا قصيرة، وأدوات كاشطة.

المشاهد الطبيعية والاستيطان البشري

تشير العلاقة بين توزيع المواقع الأثرية والتضاريس إلى أن المجموعات البشرية في

العصر الحجري المتأخر كانت تُفضّل الاستيطان في المناطق التي تجمع بين القرب من الموارد المائية والحماية الطبوغرافية. وقد لعبت المصاطب الرسوبية دورًا مهمًا في هذا السياق، إذ وفّرت أرضيات مستقرة نسبيًا فوق مستوى الفيضانات.

كما تُظهر البيانات أن اختيار مواقع الاستيطان لم يكن عشوائيًا، بل خضع لمعايير بيئية دقيقة، من بينها توفر المواد الخام الحجرية، وسهولة الحركة، وإمكانية مراقبة المجال المحيط.

نهاية العصر الحجري المتأخر وبدايات التحول النيوليتي

تُشير بعض المؤشرات الأثرية والبيئية إلى حدوث تحولات تدريجية في أنماط الاستيطان مع نهاية العصر الحجري المتأخر، تمهيدًا لظهور أولى ملامح العصر الحجري الحديث. ويُحتمل أن تكون هذه التحولات مرتبطة بتغيرات مناخية جديدة، أدت إلى إعادة تنظيم الاقتصاد المعيشي للمجموعات البشرية.

مواقع إضافية وتوزيع الأدوات الحجرية

تُظهر المسوحات الميدانية في مناطق إضافية من جبل نفوسة، ولا سيما في الأجزاء العليا من الأودية وعلى الحواف الرسوبية، وجود مواقع أثرية أخرى تعود إلى العصر الحجري المتأخر. وتتميّز هذه المواقع غالبًا بكثافة أقل من اللقى مقارنة بوادي الزرقة، لكنها تؤكد اتساع المجال المستغل من قبل المجموعات البشرية.

تتكون التجمعات الحجرية في هذه المواقع أساسًا من رقائق صغيرة ونصال قصيرة، مع وجود محدود للأدوات الثقيلة. ويُلاحظ أن العديد من هذه المواقع تقع في مواضع مرتفعة نسبيًا، ما يشير إلى استخدامها كنقاط مراقبة أو كمحطات مؤقتة خلال التنقل الموسمي.

كما لوحظ أن بعض المواقع تحتوي على تراكمات مختلطة من الأدوات، ما قد يعكس إعادة استخدام المكان عبر فترات زمنية مختلفة، أو تداخل نشاطات بشرية متعاقبة في الموقع نفسه.

العلاقة بين الأدوات والسياق الرسوبي

يُظهر التحليل الطبقي أن معظم مواقع العصر الحجري المتأخر تقع فوق رواسب أقدم تعود إلى البلايستوسين المتأخر، وغالبًا ما تكون هذه الرواسب مغطاة بقشرة كلسية رقيقة. ويُعد هذا السياق الرسوبي مؤشرًا مهمًا لفهم توقيت الاستيطان

البشري وربطه بالتغيرات المناخية.

في بعض الحالات، وُجدت الأدوات الحجرية مدفونة جزئيًا داخل الرواسب، ما يشير إلى أن بعض مواقع العصر الحجري المتأخر لم تكن سطحية بالكامل، بل تعرّضت لعمليات دفن لاحقة نتيجة نشاط الأودية أو الانجراف.

التسلسل الزمني (Chronology)

يعتمد التأريخ الزمني للمواقع المدروسة على مزيج من المعطيات الطبقية والمقارنات التقنية، إضافة إلى عدد محدود من التأريخات المطلقة باستخدام الكربون المشع (AMS). وتُعبَّر التواريخ عادة بوحدة السنوات قبل الحاضر (BP).

تشير هذه البيانات إلى أن معظم مواقع العصر الحجري المتأخر في جبل نفوسة تعود إلى فترة تمتد تقريبًا بين 12,000 و8,500 سنة قبل الحاضر، وهي فترة تتوافق مع نهاية البلايستوسين وبداية الهولوسين.

أما المواقع التي تُظهر خصائص تقنية أكثر تطورًا، فقد يُحتمل أن تكون أقرب زمنيًا إلى الهولوسين المبكر، وربما تمثل مراحل انتقالية نحو أنماط اقتصادية جديدة.

وادي شكشوك

يُعد وادي شكشوك من أبرز المواقع التي كشفت عن تسلسل رسوبي وأثري واضح. وقد أظهرت الحفريات الاختبارية وجود طبقات تحتوي على أدوات حجرية من العصر الحجري المتأخر، مدفونة داخل رواسب طمية دقيقة.

تتضمن اللقى في هذا الموقع رقائق ونصالًا صغيرة، إضافة إلى بعض الأدوات المشذبة بعناية، ما يدل على مستوى تقني متقدم نسبيًا. كما تشير طبيعة الرواسب إلى أن الموقع كان قريبًا من مجرى مائي نشط خلال فترة الاستيطان.

الجدول (1): التسلسل الزمني المطلق لمنطقة شكشوك - جبل نفوسة (ليبيا)

رقم العيّنة	نوع العيّنة	طريقة القياس	العمر بالكربون المشع[9]	الموقع	المنطقة
Beta-167092	فحم نباتي	AMS	40 ± 5400	SJ-02-67	عين صودة

9 - (سنة قبل الحاضر BP)

Beta-154570	رواسب عضوية	كربون مشع تقليدي (C14)	100 ± 6120	SJ-00-58	عين صودة
Poz-215	فحم نباتي	كربون مشع تقليدي (C14)	55 ± 11,360	SJ-00-55 شرق	شكشوك (شرق)
Beta-167096	فحم نباتي	AMS	70 ± 11,620	SJ-00-55 غرب (اختبار 1)	شكشوك (غرب)
Beta-185498	مادة متفحمة	AMS	40 ± 11,570	SJ-00-55 شرق	شكشوك (شرق)
Beta-185499	مادة متفحمة	AMS	40 ± 11,690	SJ-00-55 شرق	شكشوك (شرق)
Beta-157689	مادة متفحمة	AMS	60 ± 16,750	SJ-00-56	شكشوك
Beta-167094	فحم نباتي	AMS	400 ± 24,620	منطقة عين صودة	شكشوك (شرق)
Beta-157687	مادة متفحمة	AMS	140 ± 24,740	SJ-00-55 غرب (اختبار 2)	شكشوك (غرب)
Beta-185497	رواسب عضوية	AMS	150 ± 25,410	SJ-00-56 امتداد 2	شكشوك
Beta-167099	مادة متفحمة	AMS	400 ± 25,500	SJ-00-55 غرب (اختبار 2)	شكشوك (غرب)
GrA-496 ((KIA-3720	فحم نباتي	AMS	430 ± 27,800	SJ-00-56 امتداد 2 (القاعدة)	شكشوك
Beta-157688	رواسب عضوية	AMS	200 ± 30,870	SJ-00-55 غرب (اختبار 2)	شكشوك (غرب)
Beta-167098	مادة متفحمة	AMS	± 43,530 2,110	مقطع جيولوجي	شكشوك
Beta-167097	رواسب عضوية	AMS	± 44,600 2,430	SJ-02-68	وادي سل

الانتقال نحو العصر الحجري الحديث

تُظهر بعض مواقع جبل نفوسة مؤشرات مبكرة على التحول نحو أنماط معيشية نيوليتية، وإن كانت هذه المؤشرات لا تزال محدودة ومجزأة. وتشمل هذه المؤشرات تغيرات في توزيع المواقع، وتزايد الاعتماد على مناطق معينة، وربما بدايات استغلال موارد نباتية بشكل أكثر انتظامًا.

غير أن الأدلة المتوفرة لا تسمح بعد بتأكيد وجود استيطان نيوليتي مكتمل، بل تشير إلى مرحلة انتقالية معقدة، تميّزت بتداخل سمات العصر الحجري المتأخر مع عناصر جديدة.

المواقع الكبرى ودورها الإقليمي

تُعد بعض مواقع العصر الحجري المتأخر في جبل نفوسة مواقع محورية من حيث كثافة اللقى وتنوّعها، ما يشير إلى دور إقليمي يتجاوز مجرد الاستيطان المؤقت. وتتميّز هذه المواقع بانتشار واسع للأدوات الحجرية، وبتنوّع تقني واضح يعكس تعدد الأنشطة البشرية التي مورست فيها.

تشير المعطيات إلى أن هذه المواقع قد تكون استُخدمت كنقاط تجمع موسمية، حيث تلتقي مجموعات بشرية مختلفة ضمن شبكات تنقّل أوسع. ويُحتمل أن تكون قد أدّت وظائف اجتماعية واقتصادية، مثل تبادل المواد الخام أو تبادل المعرفة التقنية.

التحليل الوظيفي للأدوات الحجرية

يُظهر التحليل المورفولوجي والتقني للأدوات الحجرية أن غالبية اللقى تعود إلى أنشطة مرتبطة بالصيد ومعالجة الفرائس، إضافة إلى تجهيز المواد النباتية. وتشمل الأدوات الأكثر شيوعًا النصال الدقيقة، والكاشطات، والمثاقب الصغيرة.

تُشير آثار الاستعمال (use-wear) المرصودة على بعض الأدوات إلى استخدامها في القطع والسلخ والكشط، ما يدعم فرضية وجود اقتصاد معيشي متنوّع يعتمد على موارد متعددة. كما يُلاحظ أن بعض الأدوات أُعيد شحذها أو تعديلها، ما يدل على قيمة هذه الأدوات في سياق التنقل، وحرص المجموعات البشرية على إطالة عمرها الوظيفي.

الربط الزمني والتقني بين المواقع

يسمح التشابه التقني بين مجموعات الأدوات الحجرية من مواقع مختلفة بإجراء

مقارنات زمنية نسبية، تشير إلى وجود تقليد تقني مشترك على مستوى جبل نفوسة. غير أن بعض الفروق الدقيقة في أحجام الأدوات وأشكالها قد تعكس تباينات محلية أو اختلافات وظيفية.

وتُظهر المقارنات أن الصناعات الحجرية في جبل نفوسة تتقاطع في خصائصها مع صناعات معروفة في مناطق أخرى من شمال إفريقيا، ما يوحي بوجود تواصل ثقافي أو على الأقل تشابه في الاستجابات التقنية للتحديات البيئية المتشابهة.

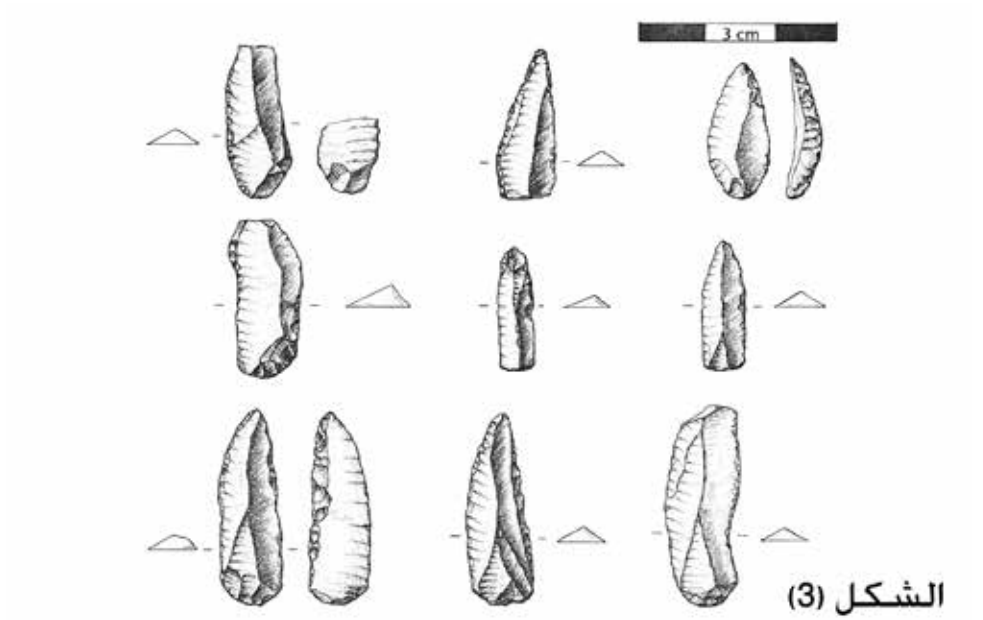

الشكل (3)

شرح الأشكال

الشكل (3)

يعرض الشكل مجموعة من الأدوات الحجرية المصغّرة (microliths) المكتشفة في أحد مواقع العصر الحجري المتأخر. وتُظهر هذه الأدوات تقنيات دقيقة في التشذيب، مع حواف حادة منتظمة، ما يدل على مستوى متقدم من التحكم في إنتاج الشفرات.

الشكل (4)

يوضح هذا الشكل تنوّع الأدوات المشذبة، بما في ذلك النصال والكاشطات والمثاقب. وتُبرز الرسومات السمات التقنية المميزة، مثل اتجاهات التشذيب وزوايا الحواف.

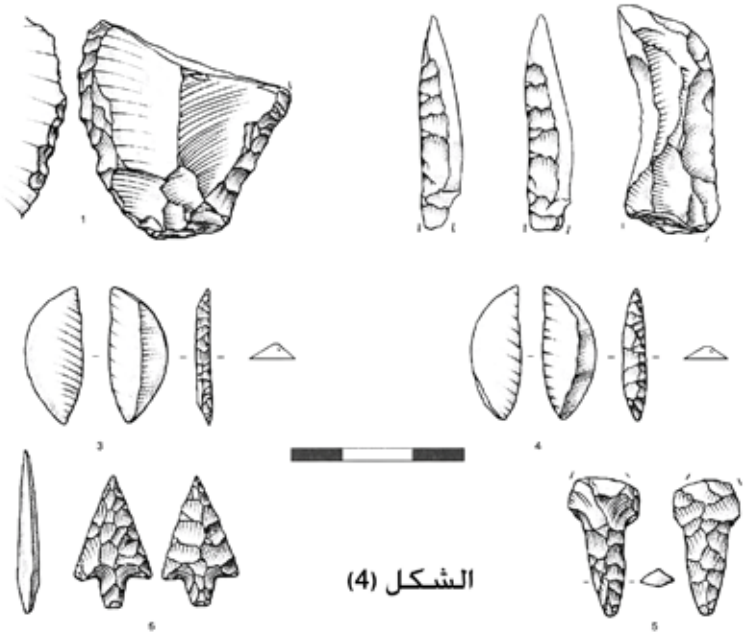
الشكل (4)

دلالات الاستيطان البشري

تشير كثافة اللقى وتنوّعها في بعض المواقع إلى أن الاستيطان لم يكن عابرًا فقط، بل ربما تكرّر على مدى فترات زمنية طويلة. ويُحتمل أن تكون هذه المواقع قد لعبت دورًا مركزيًا في استراتيجيات الاستيطان الإقليمي، خاصة خلال الفترات المناخية الأكثر ملاءمة.

كما تدعم هذه النتائج فرضية أن المجموعات البشرية في جبل نفوسة كانت تمتلك معرفة دقيقة بالبيئة المحلية، واستطاعت استغلال مواردها بكفاءة عالية.

تحليل تفصيلي للصناعات الحجرية

يُظهر التحليل التفصيلي لمجموعات الأدوات الحجرية أن الصناعات المنسوبة إلى العصر الحجري المتأخر في جبل نفوسة تتسم بدرجة عالية من التنظيم التقني. فقد جرى إنتاج النصال والرقائق وفق تسلسل عمليات مدروس، يبدأ باختيار النوى المناسبة وينتهي بإنتاج أدوات نهائية ذات وظائف محددة.

تتسم النوى المستخدمة غالبًا بأحجام صغيرة إلى متوسطة، وتُظهر آثار إعداد مسبق لأسطح الضرب، ما يدل على معرفة تقنية متقدمة بخصائص المواد الخام. كما

يُلاحظ أن عمليات التشذيب اللاحقة كانت تهدف إلى تحسين فعالية الأداة، سواء من حيث الحدة أو سهولة الإمساك.

التنوع التقني والوظيفي

تعكس الصناعات الحجرية تنوعًا تقنيًا واضحًا، يُحتمل أن يكون مرتبطًا بتعدد الأنشطة التي مورست في المواقع المختلفة. فبعض المواقع تُظهر تركيزًا على أدوات القطع الدقيقة، في حين تتضمن مواقع أخرى عددًا أكبر من الكاشطات والمثاقب، ما قد يشير إلى اختلاف في الوظائف أو في طبيعة الاستيطان.

ويُحتمل أن يكون هذا التنوع نتيجة تفاعل عوامل عدة، من بينها طبيعة الموقع الجغرافي، وتوفر الموارد، ومدة الإقامة في الموقع. كما لا يُستبعد أن يعكس هذا التنوع وجود تقاليد تقنية فرعية داخل الإطار العام للعصر الحجري المتأخر في المنطقة.

المواد الخام واستغلال الموارد المحلية

تشير الدراسة إلى أن المجموعات البشرية اعتمدت بشكل رئيسي على مواد خام محلية في صناعة الأدوات الحجرية، خاصة الصوان بأنواعه المختلفة. وقد جرى جمع هذه المواد إما مباشرة من مكاشف طبيعية قريبة أو من الحصى المحمولة ضمن رواسب الأودية.

يدل هذا الاعتماد على الموارد المحلية على معرفة دقيقة بالبيئة الجيولوجية، وعلى استراتيجيات اقتصادية تهدف إلى تقليل كلفة التنقل ونقل المواد. كما يُلاحظ أن جودة الأدوات لا تقل رغم استخدام مواد محلية، ما يعكس مهارة تقنية عالية.

مقارنة إقليمية

عند مقارنة الصناعات الحجرية في جبل نفوسة بتلك المعروفة في مناطق أخرى من شمال إفريقيا، يتضح وجود أوجه تشابه واضحة، خاصة في الاعتماد على الأدوات الميكروليتية وفي تقنيات إنتاج النصال الدقيقة. ومع ذلك، تظهر بعض الخصائص المحلية التي تميّز مواقع جبل نفوسة، سواء في نسب أنواع الأدوات أو في تفاصيل التشذيب.

تشير هذه المقارنة إلى أن جبل نفوسة كان جزءًا من فضاء ثقافي أوسع، مع احتفاظه في الوقت نفسه بخصوصيات محلية نابعة من بيئته الجغرافية والبيئية.

دلالات ثقافية وبيئية

تُبرز النتائج أن التغيرات التقنية في الصناعات الحجرية لم تكن معزولة عن السياق

البيئي، بل جاءت استجابة مباشرة للتحولات المناخية وتغير توفر الموارد. فالفترات الأكثر رطوبة سمحت باستقرار أطول وبأنشطة أكثر تنوعًا، في حين فرضت الفترات الجافة أنماط تنقل أكثر مرونة.

وبذلك، تُعد الصناعات الحجرية سجلًا ماديًا يعكس العلاقة الديناميكية بين الإنسان وبيئته خلال أواخر عصور ما قبل التاريخ في جبل نفوسة.

الأدلة النيوليتية المبكرة

تُظهر بعض مواقع جبل نفوسة دلائل محدودة ولكن ذات أهمية خاصة على ظهور ممارسات تُنسب إلى بدايات العصر الحجري الحديث. ولا تتمثل هذه الدلائل في استيطان نيوليتي مكتمل العناصر، بل في مؤشرات جزئية توحي بمرحلة انتقالية معقدة بين اقتصاد الصيد-الجمع والأنماط الإنتاجية اللاحقة.

تشمل هذه المؤشرات تغيرات في توزيع المواقع، مع ميلٍ إلى اختيار مواضع أكثر ثباتًا بالقرب من موارد مائية موسمية أو دائمة نسبيًا، إضافة إلى وجود أدوات حجرية تختلف جزئيًا في خصائصها التقنية عن مثيلاتها في العصر الحجري المتأخر الكلاسيكي.

التغيرات الاقتصادية المحتملة

تشير بعض المعطيات إلى احتمال حدوث تحول تدريجي في استراتيجيات استغلال الموارد، مع زيادة الاهتمام بالموارد النباتية وربما بدايات إدارة بعض الأنواع الحيوانية. غير أن غياب الأدلة المباشرة، مثل بقايا نباتية مدجنة أو عظام حيوانات مستأنسة، يجعل من الصعب تأكيد هذا التحول بشكل قاطع.

وعليه، يُرجَّح أن تكون المجموعات البشرية في جبل نفوسة قد تبنّت نمطًا اقتصاديًا مرنًا، يجمع بين تقاليد الصيد-الجمع الراسخة وبعض الابتكارات التدريجية التي مهدت لاحقًا لظهور المجتمعات النيوليتية.

الانتقال الثقافي والتقني

من الناحية التقنية، لا تُظهر الصناعات الحجرية المنسوبة إلى هذه المرحلة الانتقالية قطيعة واضحة مع تقاليد العصر الحجري المتأخر، بل استمرارًا مع بعض التعديلات الطفيفة. ويُلاحظ أن بعض الأدوات تتميز بأحجام أكبر نسبيًا أو بتشذيب أقل دقة، ما قد يعكس تغيرًا في الوظائف أو في أساليب الاستخدام.

وتشير هذه الاستمرارية إلى أن التحول النيوليتي في جبل نفوسة لم يكن حدثًا فجائيًا، بل عملية تدريجية تأثرت بالعوامل البيئية والاجتماعية على حد سواء.

تفسير النتائج في الإطار الإقليمي لشمال إفريقيا

عند وضع نتائج جبل نفوسة ضمن السياق الأوسع لشمال إفريقيا، يتضح أن المنطقة تشارك سمات مشتركة مع مواقع أخرى شهدت تحولات مماثلة خلال نهاية البلايستوسين وبداية الهولوسين. غير أن توقيت هذه التحولات وطبيعتها يبدوان متفاوتين من منطقة إلى أخرى، ما يعكس تنوع المسارات التاريخية نحو النيوليت.

وتُبرز هذه المقارنة أهمية المناطق الداخلية، مثل جبل نفوسة، في فهم ديناميات التحول الثقافي في شمال إفريقيا، بعيدًا عن التركيز التقليدي على المناطق الساحلية أو وادي النيل.

دلالات بيئية طويلة المدى

تُظهر المعطيات البيئية أن فترات الرطوبة خلال الهولوسين المبكر لعبت دورًا حاسمًا في تمكين الاستيطان البشري الأكثر استقرارًا. غير أن هذه الفترات كانت متقطعة، وتخللتها مراحل جفاف أعادت تشكيل أنماط الاستيطان وأجبرت المجموعات البشرية على التكيف المستمر.

ويعكس هذا التفاعل المعقّد بين الإنسان والبيئة قدرة عالية على المرونة والتكيّف، شكّلت الأساس للتطورات الثقافية اللاحقة في المنطقة.

الخلاصة العامة

تُظهر نتائج البحث المنجز في جبل نفوسة أن هذه المنطقة شكّلت فضاءً مهمًا للاستيطان البشري خلال أواخر عصور ما قبل التاريخ، وأنها شهدت تفاعلًا مستمرًا بين الإنسان والبيئة على مدى فترات زمنية طويلة. وقد أتاح الجمع بين المعطيات الأثرية والجيولوجية والبيئية إعادة بناء تسلسل زمني وثقافي أكثر دقة مما كان متاحًا سابقًا.

تُبرز البيانات أن فترات الاستيطان البشري كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتغيرات المناخية، ولا سيما بفترات الرطوبة التي سمحت بنشاط الأودية وتوفر الموارد الطبيعية. في المقابل، أدّت مراحل الجفاف إلى تقلص الاستيطان أو إلى تحوّل أنماطه نحو استراتيجيات تنقّل أكثر مرونة.

الاستنتاجات المتعلقة بالتسلسل الثقافي

يُظهر التسلسل الثقافي في جبل نفوسة وجود مراحل متعددة من النشاط البشري، تبدأ ببقايا متفرقة تعود إلى العصر الحجري الأوسط، تليها مرحلة أكثر وضوحًا وكثافة خلال العصر الحجري المتأخر، ثم مؤشرات محدودة على بدايات التحول النيوليتي.

ولا يُظهر هذا التسلسل قطيعة حادة بين المراحل المختلفة، بل يعكس استمرارية نسبية في التقاليد التقنية، مع إدخال تعديلات تدريجية استجابة للتحولات البيئية والاقتصادية. وتدعم هذه النتائج فكرة أن التحول نحو أنماط معيشية نيوليتية كان عملية طويلة ومعقدة، وليست حدثًا مفاجئًا.

الأهمية الإقليمية لجبل نفوسة

تُبرز الدراسة الدور المحوري الذي لعبته المناطق الداخلية من شمال ليبيا، مثل جبل نفوسة، في تاريخ الاستيطان البشري بشمال إفريقيا. فهذه المناطق لم تكن هامشية أو معزولة، بل كانت جزءًا من شبكات تنقّل وتفاعل أوسع، امتدت عبر الصحراء الكبرى والهضبة الطرابلسية.

وتُظهر المقارنة مع مواقع أخرى في شمال إفريقيا أن جبل نفوسة يحتفظ بخصوصيات محلية، مع مشاركته في الوقت نفسه في سمات ثقافية وتقنية إقليمية مشتركة. ويجعل هذا الأمر من المنطقة عنصرًا أساسيًا في فهم تنوّع المسارات التاريخية للتحول الثقافي في المنطقة.

آفاق البحث المستقبلية

يؤكد الباحثون على الحاجة إلى توسيع نطاق الحفريات المنهجة في جبل نفوسة، وإلى إجراء مزيد من التأريخات المطلقة، من أجل تحسين دقة التسلسل الزمني وربطه بشكل أوثق بالتغيرات المناخية المعروفة إقليميًا.

كما يشدّدون على أهمية الدراسات متعددة التخصصات، التي تجمع بين علم الآثار والجيولوجيا، وعلوم البيئة القديمة، من أجل بناء صورة أكثر تكاملًا عن تاريخ الإنسان في شمال إفريقيا.

خاتمة

تُسهم هذه الدراسة في سدّ فجوة معرفية مهمّة حول تاريخ الاستيطان البشري في شمال ليبيا، وتؤكد أن جبل نفوسة يمثّل مختبرًا طبيعيًا غنيًا لفهم التفاعل بين الإنسان والبيئة خلال مراحل حاسمة من تطور المجتمعات البشرية.

ملحق (1): مسرد المصطلحات العلمية

العصر الحجري الأوسط (Middle Stone Age MSA): مرحلة من عصور ما قبل التاريخ تتميز بتقنيات نوى مُحضّرة وصناعات رقائقية متقدمة.

العصر الحجري المتأخر (Late Stone Age LSA): مرحلة لاحقة تتسم بانتشار الأدوات الميكروليتية واستراتيجيات صيد-جمع أكثر تخصصًا.

المرحلة البحرية النظيرية الثالثة (Marine Isotope Stage 3 MIS 3) : فترة مناخية تعود إلى البلايستوسين المتأخر، اتسمت بتذبذب رطوبي واضح.

ميكروليت Microlith : أداة حجرية صغيرة جدًا، غالبًا ما استُخدمت ضمن أدوات مركبة.

نواة حجرية Core: الكتلة الحجرية التي تُستخرج منها الرقائق أو النصال.

قشرة كلسية Calcrete: ترسيب كلسي ثانوي يدل على استقرار سطحي وظروف مناخية جافة إلى شبه جافة.

تأريخ بالكربون المشع AMS Radiocarbon Dating : تقنية تأريخ مطلق تُستخدم لتحديد عمر المواد العضوية.

سنوات قبل الحاضر (Before Present BP) : معيار زمني يبدأ من سنة 1950م.

آثار الاستعمال Use-wear analysis: دراسة التآكل المجهري على الأدوات لتحديد وظائفها.

مدخل إلى الطوبونيميا الليبية

دكتور عيسى مسعود بغني[10]

مقدمة

حاز البحث في علم الطوبونيميا "Toponymy" اهتماما بالغا في فهم تاريخ الأوطان والأمصار، وتتبع التحولات العميقة التي عاشتها الأمكنة والمجتمعات على مر التاريخ. والطوبونيميا هو علم يبحث في أصول ومعاني أسماء المواقع الجغرافية والتاريخية، وهو يستقصي عن معانيها الدفينة ويحاول تفسيرها وتبيان دلالاتها وأسباب تسميتها. وأنه لا يدرسها فقط كأسماء جامدة زمكانيا، وإنما يغوص في التحولات التي شهدها الاسم الطوبونيمي، وأنساقه اللغوية، وتغييره عبر الزمن، ومدى مسايرته للتحولات البنيوية للمجتمعات التي إستقر بها، أي أن الطبونيميا هو إستنطاق للتاريخ غير المكتوب، وهو (الثقب الثالث) لسبر اغوار الماضي، بعد النصوص التاريخية والتنقيب عن الاثار ودراستها، ويكتسب اهميته في ليبيا ان النصوص التاريخية شحيحة والبعض منها غير صحيح، بالاضافة ان التنقيب الاثري قليل ومتاخر مقارنة بالدول الاخرى.

فالأمازيغ على سبيل المثال، يطلقون تسميات على الأماكن والمدن والجبال والأودية والشعاب، يطلقون عليها تسميات ذات معان ودلالات حينا أو ذات حادثة او قصة علقت في الاذهان أحيانا كثيرة، فمنها ما هو مستوحى من الشكل الطوبوغرافي للموقع، أو من تسمية المجموعة البشرية التي تقطن بالمكان، أو طبيعة الأشجار والنباتات التي يشتهر بها ذلك الموقع، أو من خلال طبيعة لون الأرض أو خاصية تتميز بها المنطقة عن غيرها، كوجود ينابيع الماء أو معالم أخرى بارزة تعطي للموقع التفرد والخصوصية عن غيره، كالبعد الوظيفي الذي يمنحه الموقع مثل الابار والعيون، أو البعد الرمزي كالقداسة والبركة التي تحظى بها بعض الأمكنة والفضاءات.

إن دراسة أصل ومعاني هذه التسميات تساعد المؤرخ كثيرا في فهم المجتمعات والمجالات قيد الدراسة، ومراحل تطور اللغة المحلية، والتحولات التي عرفتها المجموعات البشرية، كما أن تدوينها يحافظ على الذاكرة الشعبية للمجتمع خاصة للشعوب ذات

10 - دكتور عيسى مسعود بغني أكاديمي ومؤلف لعدة كتب وكاتب في العديد من الصحف والمجلات الاليكترونية.

الثقافة الشفهية، ويساعد على تحديد الاملاك الخاصة والعامة ضمن الوثائق القديمة، إضافة إلى استعمال تلك الاسماء في جغرافية المكان للحفاظ على الخصوصية الثقافية، وهو ما نوهت اليه منظمات الهيئة الامية[11] في الكثير من المؤتمرات[12].

1. مجال علم الطوبونوميا:

الطوبونيميا كلمة معربة تعني: (علم اسم المكان) ، اما (اسم المكان) الذي يدرسه هذا العلم فيقال له (طوبونيم)، مثل إسم أوجلة ، زيغن ، تاغرويت، تيركت، تاغت، هذه الكلمات تعتبر طوبونيم لانها اسم لمكان معيّن. ويسمى علم الامكنة باللغة الأمازيغية Tasmidegt ⵜⵙⵎⵉⴷⴻⴳⵜ. وللعلم أن لفظ الطوبونيميا يرجع إلى أصل إغريقي، ويتكون من جزئين: tópos ويعني المكان، و onoma: يعني الاسم .

الطوبونيميا هي في الواقع فرع من علم اشمل يسمى: الاسماوية او علم الأسماء (onomastics)، هذا الأخير يدرس معاني الأسماء عامةً، كأسماء الاماكن والافلاك والكنى والالقاب والاسماء الشخصية وأسماء الشعوب والقبائل والنحل والملل والكائنات الحية واجزاء الجسد وغيرها، وعلى الرغم من كل ذلك فان الطوبونيميا ليست علماً لغوياً صرفاً، يبحث داخل اللغة ولا يجاوزها، بل أنه حقل متداخل (Interdisciplinary field) مع علوم أخرى، بمعنى انه يوظف معارف شتى للوصول الى النتيجة المرجوة. هذه المعارف تشمل النصوص التاريخية والاكتشافات الأثرية والدراسات الجيولوجية والجغرافية، التي تهتم بالطبيعة والبشر والمكان.

2. فروع علم الطوبونيميا:

إسم المكان (الطوبونيم)، قد يعني مستوطنة بشرية مثل القرى والقصور أو تضاريس جغرافية مثل الشعاب والحقول والغابات والكهوف، أو المزارات الدينية، أو حتى أسماء القبائل والعائلات، وفيما يلي قائمة بأهم التصنيفات المتعارف عليها:

* أُويكونيم (Oikonym): اسم مستوطنة بشرية: بيت، حصن، بلدة، مدينة، مثل صبراته، برجوج، تيركت، تغسات.

* هايدرونيم (hydronym): اسم مناهل ومواضع المياه او مجاريها مثل عين تالا، عين

11 - Toponymy Training Manual
https://unstats.un.org/unsd/ungegn/pubs/documents/Training%20Manual.pdf

12 - الأسماء الجغرافية من حيث هي مفتاح أساسية للوصول إلى المعلومات في عالم رقمي معولم
https://unstats.un.org/unsd/ungegn/pubs/documents/arabic_booklet.pdf

تونين، عين الزرقا، وادي كينوب[13]. أورونيم (oronyms): اسم للمرتفعات كالهضاب والجبال مثل التومات، جبل الدروج، طويل اللفع، أدرار ن نفوسة.

* كورونيم (choronymics): اسم للفيافي والقفار، مثل الحمادة، العرق، صحراء السرير، صحراء الزلاف.

* سبليونيم (speleonyms): اسم للكهوف والمغارات ونحوها، كهف كباو، حفقة وشيش، حفقة الطيور غار الخفافيش.

* أسترونيم (astronyms): اسم للافلاك والاجرام السماوية، مثل درب التبانة، والمريخ وعطارد.

* اودونيم (Odonym): اسم درب او طريق او معبر، مثل مسارات الحج، الطريق الساحلي، معبر القطرون.

* أگرونيم (agronyms): اسم مزرعة، بستان، مرعى او حقل.

* درايمونيم (dromonyms): اسم للاحراش والغابات والشعاب ونحوها.

* زونيم (Zoonym): اسم الدواب والطيور والحشرات والزواحف.

* الإجيونيم (Agionym) وهو يهتم بأسماء الإعلام ذات البعد الديني والروحاني مثل : مقام يحي بن سفيان، مقام ساك صالح، جامع سيدي عبدالسلام الاسمر، مقام نير، مقام أحمد الزروق، الروضت نـ ئزوزام.

* الإثنونيم (Ethnonym) ويختص بالأعراق أو بدراسة أسماء القبائل مثل: أولاد أبراهيم، أولاد الدير، المطاوعية، لواته، سدراته، هوارة ورفلة، صنهاجة.

3. توظيف علم اللسانيات لفهم الطوبونيميا:

لا شك أن علم اللسانيات هو حجر الاساس لدراسة وفهم الاسماء الطوبونيمية لما له من قواعد راسخة وأساليب جيدة للتعامل مع الكلمة أي كانت.

3.1 خصوصيات اللغة الامازيغية:

عند البحث عن معاني أسماء الاماكن في ليبيا يتطلب الامر إستخدام اللغة الامازيغية كأساس للبحث في المناطق التي سكنها الامازيغ لقرون طويلة أو التي كانوا

13 - وادي كينوب هو الاسم القديم لعين كعام.

فيها سابقا ثم جاءات مجموعات عرقية أخرى حلت محلهم أو تحولوا هم إلى اللغة العربية كما هو الحال في معظم الاراضي الليبية. ويفضل كتابة التسميات باستعمال قواعد اللغة الامازيغية وخاصة حروف التيفيناغ التي تعبر كثيرا عن النطق الاصلي للتسميات الامازيغية، ومن خصوصيات إستعمال اللغة الامازيغية بحروف التيفيناغ ما ياتي:

إستعمال حرف (ياگ)[14] كثيرا في التسميات الامازيغية وهو يشابه الجيم المصرية أو (G) الجرمانية، في حين لا يوجد هذا الحرف في العربية الفصحى، أما إستعمال الدارجة للحرف في كل شمال أفريقيا فهو ناتج عن تأثير الامازيغية.

أن الكثير من الاسماء الامازيغية في صيغة المذكر تبداء بساكن مثل أدرار، أبريد، أتوي، أمزدوگ ، والعربية لا تبداء بساكن.

في الامازيغية لا توجد أدوات التشكيل، مثل الفتحة والضمة والكسرة، بل تستعمل الحروف المتحركة للفتح والضم والجزم وهي (ⴰ =أ) (ⴻ = ئـ) (ⵓ = ؤ). مثل أتماد، ماضص،ئمجوجن، ئجربن، ئروتن، ؤخسيب ن يحي، وبذلك فان إستعمال (ئـ) بدلا من إ مناسبة للكتابة في التيفيناغ لانها قد تأتي في بداية الكلمة أو في منتصفها.

تستخدم تا الثانيت في بداية ونهاية الكلمة مثل: تبحيرت، تالات، تمسيدلت، تيجنت، تباليت.

يستعمل تضعيف الحروف بديلا عن علامة الشددة في العربية مثل: أددگگيجت، برددا، تبررويين، أجمماض.

الاسماء الامازيغية لا يوجد بها الحروف اللثوية (ذ، ظ ، ث) وهذا واضح حتى في الدراجة الليبية التي لا تستعملها، أما الحروف مثل ط، ض ، ص، فهي ناجّة عن تاثير اللغات الوافدة بتضخيم نطق الحروف مثل ت إلى ط، و س إلى ص، و د الى ض، في بعض الكلمات، ولذا يندر وجودها.

3.2 المورفيمات:

لا شك أن كل اللغات تقريبا بدأت في صورتها الشفهية ثم تطورت الى حروف، إن وُضع لها ترتيب، تعطي كلمات، ثم جُمل لها معنى، في أي لغة كانت يمكن تقسيم

14 - حيث أن الابجدية العربية لا يوجد بها حرف ج الجرمانية أو المصرية فاننا وفي الكثير من الدراسات الامازيغية يستعمل حرف گ بديلا عن ياگ (ⵅ) في التيفيناغ.

الكلمات إلى حروف منطوقة أو كلمات يمكن إضافة بادئات ولواحق لها، وتسمى وحدة بناء الكلمة أو الوحدة الصوتية بالفونيم (phoneme) فمثلا كلمة أدرار بمعني جبل تتكون من خمسة وحدات صوتية (فونيمات) وهي أ، د، ر، إ، ر. وتسمى هذه الوحدة الصوتية بالوحدة الصرفية ولها معنى دلالي وهو الجبل وتؤدي وظيفة نحوية وهو الاسم في هذه الحالة، وبالمثل يمكن تطبيق كل ذلك على الاسماء والافعال والصفات والظروف. وعليه فان الوحدة الصوتية أو الفونيم، هي وحدة بناء الكلمة أي نطق الحروف. فكل كلمة ذات معنى هي منظومة من الفونيمات الدلالية أو الوظيفية[15]،[16].

أما المورفيم فهو أصغر وحدة في بنا الكلمة وتتمثل وظيفته في حمل المعنى أو الوظيفة النحوية في الكلمة، بما يضمن تحديد نوع الكلمة إذا ما كانت إسمية أو فعلية كما يبين نوعها من حيث التذكير والتانيث. وينقسم المورفيم إلى عدة أنواع منها:

3.2.1 المورفيم الدلالي (Content morpheme):

المورفيم الدلالي يعني الكلمة التي لها مضموناً دلالياً، أصلياً او مجازياً، محسوساً او مجرداً، وقد تُستخدم كدالة لمدلول عليه. وتشمل الأسماء والصفات والأفعال. وينقسم المورفيم الدلالي إلى:

أ- المورفيم المجرد (Base morpheme):

وهو المورفيم الدلالي الذي لا (يلحق به) أو (يقيد معه) أي مورفيم آخر، سواء كان هذا (الآخر) دلالي أو وظيفي. ومثال على ذلك: أسساغ (ماجن) وكلمة أسساغ من الفعل أسسو: أشرب، وأسسوغ: شربت، وُجمي (حقل) ، تالات (نبع).

ب- المورفيم المُركّب (Compound morpheme):

المورفيم المُركّب يتكون من أكثر من مورفيم، أي أنها مورفيمات مقيدة ببعضها وقد تكون مجردة او وظيفية، فيمكن القول ان التركيب يتحقق بوجود مورفيمات وظيفية مقيدة بالمورفيم الدلالي. مثل تاء التأنيث في بداية ونهاية الكلمة في تبحيرت (أرض بور لزراعة المحاصيل) و تقصبت (حجرة حجرية في البر). كما يشمل ذلك تكرار المورفيم المجرد، مثل: (رگرگ) قرية بالقرب من جادو.

15 Kripke, Saul: 1972, "Naming and Necessity",

16 Putnam, H. (1975). The meaning of "meaning". In K. Gunderson (Ed.), Language, Mind and Knowledge: Minnesota Studies in the Philosophy of Science. Minneapolis: University of Minnesota Press.

3.2.2 المورفيم الوظيفي (Functional morpheme):

هو المورفيم الذي لا مغزى له في حد ذاته، وانما يستخدم ليُغّير المورفيم الدلالي أو ليعطي معلومات أكثر عنه، وتنقسم المورفيمات الوظيفية إلى عدة أقسام يمكن إجمالها فيما يأتي:

أ- المورفيم المُقيد (bound morpheme):

وهو المورفيم الوظيفي الذي يُلصق او يقيّد بالمورفيم الدلالي. مثل: (الـ) التعريف العربية. او (أم) بمعنى المكان أو المنشاء. وقد يضاف (ئـ في بداية الاسم ونون الجمع السالم في أخره) ، وكذلك إضافة (بو) العربية بمعني صاحب المكان.

ب- المورفيم الحر (free morpheme):

وهو المورفيم الوظيفي الذي يؤدي وظيفته لغوية دون ان يُلصق او يقيد بالمورفيم الدلالي. المورفيمات الوظيفية تشمل: حروف الجر (د، دنـگ، سادو، أف، نـ، المي...) ، أدوات التعريف: أت، تيه، تين الخ ، أسماء الإشارة (وهو ويهي توهو تيهي..)، ميم الالة، نون الجمع السالم، تاء التأنيث، وما كان في حكمها او شكلها.

4. تحليل اسماء طوبونيميا الامازيغية الليبية:

يرتكز تحليل اسماء الاماكن على طبيعة الوحدات الصوتية (المورفيمات) وحيث أن اللغة الامازيغية هي أساس التسمية في معظم الجغرافية الليبية، فيتم إرجاع الكلمات إلى واقعها الهجائي بحروف التيفيناغ التي هي أكثر قدرة على التعبير لتلك التسميات، أخذا في الاعتبار أن الكثير من الاسماء قد حدث لها تعريب جزئي على مر العصور، ولذا يكون التحليل مزدوجا للاصل الامازيغي أولا، ثم للتسمية العربية المحورة للمكان أو المعلم.

ويتم ذلك إستنادا للوحدات الصوتية (المورفيمات)، بفك تشفير الاسماء عن طريق تقسيمها إلى مقاطع وتجريدها من البادئات واللواحق، وفيما يلي منهجية تحليل معظم الأسماء الجغرافية الأمازيغية والمستعربة:

4.1 تقسيم الاسم إلى مقاطع:

غالبا ما يتم بناء أسماء الأماكن الأمازيغية من جذور وبادئات ولواحق، فالبادئات في الاسماء الامازيغية قد تكون تـ الثانيت وهي منتشره جدا في الامازيغية مع النهاية

بالتاء، مثل تابحيرت، تامورت، تادارت، تاسكرانيت ومنها إضافة ئمي وتعني فم أي بداية الشيء ومنها ئمي ن تالا: فم العين أو مصب الماء. بالمثل إضافة وْسسف أو أسسيف بمعنى الوادي، مثل وْسسف ن التلت: وادي التلت، وْسسف ن كعام وادي كعام، وْسسف ن الجين: وادي سوف الجين. وهنا تكرر اسم الوادي في العربية والامازيغية.

وللمجموعات البشرية أو أسماء المناطق هناك أت أو أيت بمعني أهل أو أصحاب ومنها أت ويللول: أهل أو أصحاب البحر وهم الزوارية، وأت عديمس: غدامسية، هناك أماكن لها بادئة أت ولكن ضاع معناها وتم تحريف الكلمة من نطقها الاصلي مثل الطباقت ربما أصله أت باقت، وأتبروين ربما أصلها أت برروين، أما أيت فتستعمل في غرب الجزائر والمغرب أكثر من ليبيا.

من البادئات التي تعني أبناء أو أهل إستعمال حرف (ئـ) مقابله في العربية حرف (إ)، فنقول ئجربن وهي غابة ربما أخدت إسمها من أهلها القادمين من جربة، ئزگرارن جمع تازگرارت وقد يكون لها علاقة بطوال القامة للاشخاص أو طول الشعبة. كما أن في المناطق الجبلية هناك كلمة المربح[17]، منها المربح نـ ئموزان، المربح نـ أمارصيد. وفي أماكن العيون تبرز كلمة تالا بمعني عين ماء، وتنتشر هذه الكلمة في كل ربوع شمال أفريقيا.

وهناك بادئات عربية أستعملت في اسماء الاماكن بتاثير موجة التعريب التي إنتشرت في العصور الحديثة، من هذه الاسماء التي تبدا ب (ال) التعريف للاسم المتلوي، او الـگدح أو الـگدرور و (أم) مثل أم الرمل، أم الفار، أم الغربال، أم الباگل (الباگل نبات عشبي صحراوي)، وكذلك الاسماء البادئة ب (بو) مثل بوجبارة، بومليح، بوركبة، بوجلدي، والاسماء التي تستعمل الكلمات العربية مثل شعبة، أو خشة[18]: وتعني المدخل أو خشم[19]: وتعني المرتفع من الشي، أو عين وغيرها من أسماء الجغرافيا العربية التي تفسر نفسها.

ويلاحظ أن الكثير من اسماء الاماكن تتكون من وحدتين صوتيتين وعادة لها رابط ملكية أو نسب (نـ) مثل تالا نـ أحشان، لـگن نـ عمران، وهناك بادئات ولواحق للاسماء من صيغة الجمع المذكر ئـ .....أون مثل ئسرساون أو ئـ ....ن مثل ئغرواسن، ئروتن، ئمسكريون وغيرها من الاسماء.

17 - المربح تعني منخفظ بين جبيلين، أو أرض مستوية بين جبيلين.

18 - الخشة عربية تعني الدخول السريع للمكان، وتستعمل في الطوبونيميا بمعني مدخل للمنطقة أو المكان.

19 - خشم وخيشوم وخياشيم كلمات عربية تتعلق بالانف، والخشم في الطوبونيميا الليبية ما هو مرتفع من المكان.

4.2 جذور الكلمات:

تختلف أسماء الاماكن في طبيعتها بين السهل المباشر من اصل الكلمة الامازيغي الجغرافي مثل أدرار: جبل أو التومات: جبل دائرى أو تاسيرت بمعنى الرحاء ومنها تسروين وتعني الروابى (جمع ربوة) ، أو وْسف: وادي، گدح: أرض على شكل حوض منخفض، أو الاسم المشتق من النباتات مثل شيحان من نبات الشيح أو الغردق: عنب الديب أو أمزدوگ من وجود شجيرة إيزديگ، أو أسماء الحشرات مثل بيبلو: الخنفساء، أو الانعام مثل البقرة، وبين ما هو اسم ممتنع التفسير مثل أجمماض أو تاسكرانيت أو توده أو بربوج. ويلاقي الدارس لطوبونيميا الاماكن الامازيغية صعوبة بالغة في تفسير الاسماء حتى بعد نزع البادئات واللواحق لغياب القصة الحقيقية وراء التسمية.

فكلمة الدگيجة[20] هي تعريب لكلمة دگگيجت الامازيغية مع حدف ال التعريف العربية، ورغم ضياع معناها عند أهل المنطقة إلا أنها تعني المكان القريب في التنوعات المغربية، والدگگيجت فعلا مكان حقول الزيتون وقريب جدا لمدينة نالوت، إلا أن سرد قصة مزار سيدي صالح (ساك صالح) تعطي إضاءة أخرى للقصة، وهو أن دگگيجت منحوته من أسم شخص يدعى دگگيج وهو أب الولي سيدي صالح الذي كان يسكن بغابة دگگيجت غرب نالوت.

بعد عزل الاسم الأساسي أو الصفة من البادئات واللواحق يمكن معرفة أصل الكلمة، ويمكن الاستفادة من المعلومات المتوفرة في القواميس الامازيغية وموقع الذكاء الصناعي والقواميس الورقية إضافة إلى ترجمات جوجل المختلفة.

مثال على ذلك كلمة ئسرساون إسم مكان جبلي به حقول زيتون، تجزئة الكلمة تكون تحديد البادئة ئـ والاحقة أون وهي أضافة تستعمل في صيغة إسم الجمع المذكر في الامازيغية، أما جذر الكلمة فهو سرس وتعني مدرج أو أحجار متراكمة في بعض اللهجات الامازيغية، وبذلك فإن تحليل كلمة ئسرساون تعطي معني جغرافي له صفة حقول متتالية أو مدرجات زراعية .

4.3 دلالة أسماء الاماكن للجغرافية الليبية

هناك ألاف الاسماء التي يمكن تفسير معانيها مباشرة لارتباطها بمعني معروف أو بتنفيد طريقة التجريد من البادئات واللواحق السابقة للوصول الى معني الاسم، وكمثال لاسماء الجغرافية الليبية من الساحل والجبل والصحراء نرد بعض الامثلة التي

20 - دگگيجت او ال دگگيجة منطقة واسعة غرب نالوت تشتهر بتعدد شعابها المليئة باشجار الزيتون.

يتم تفسيرها بسهولة ومنها ما ياتي:

تاورغا: هناك تفسيرين لاصل الكلمة، إما أنها الارض الصفراء من اللون أورراغ بمعنى أصفر، وارض تاورغا كذلك، أو من وجود نبات تارغا في المنطقة، والاول ربما الاقرب الى الصحة.

سرت: تحوير لكلمة (تاسيرت) الرحى والاسم يتكرر كاسم قديم لقسنطينة سيرتا.

أزگير (سرت): والكلمة لها معنى ثور.

زواره: تنطق زوارا، ويعتقد أن الاسم جاء من قلب ه في هوارا إلى زين في زوارا.

تاشععالت (زوارة): الشجيرة الصغيرة.

ئغرماون (زوارة): جمع أغرم بمعنى مدنيين (أشخاص) وتاغرمت بمعنى مدينة.

جناون (جادو) أصلها ئـگناون، والمكان مرتبط بوجود عبيد في المكان.

أغلان (جادو) مسار للمياه.

امرزوگ (نالوت): مكان ينبت فيه عشبة ئزديـگ.

تماسخت (نالوت): مكان للعبادة في الدين المسيحي.

تغردايين (نالوت): جمع مؤنث، عند تجريدها نتحصل غرد وهو أسم لكومة التراب أي منطقة لها هضاب صغيرة، أو تغردايين ناتجة عن إبدال ياگ (الجيم الجرمانية) بالغين العربية أي أن صل الكلمة تـگردايين وهي جمع وْگردا بمعني حقل صغير أي تـگردايين اسم لمكان به حقول صغيرة وهي كذلك.

عين بانون (نالوت): هو بئر ضحل كان يملكه يهودي يسمى بانون فسمي باسمه.

تغليس (نالوت): هو عين ماء، واصل الكلمة تحوير للكلمة اللاتينية إگليز(Ecclesia) وتعني الكنيسة.

وادي أوكيرا أو أوكيره (ترهونة): أصل الكلمة وْكررا وتعني الثلج، وتم تعريبه باضافة ة النسب.

گرجومة (بن وليد) اصل الكلمة تاگرجومت وتعني الحنجرة، أضيف أليها ة الثانيث.

وادي مقراوة (بن وليد): كلمة مقراوة تعريب لكلمة أمقران بمعنى الوادي العظيم، وازالة البداية بالساكن الذي لا يصح في العربية مع إضافة ت النسب.

جبل توريرين (سوكنة) توريرين بمعنى العاب مؤنته والمصدر ؤراري.

تامزاوة (براك الشاطي) الاسم من تامزا بمعنى الغولة تم تعريبه باضافة ة الثانيت.

تيدرغين (غات) بمعني مرتفعات.

تيرجيت (غات) اسم وادي والمعني تصغير للحلم: حلمة.

4.4 تحديات دراسة الطوبونيميا الليبية:

رغم وضوح الكثير من أسماء الاماكن في الجغرافيا الليبية وبيان مدلولها مباشرة أو بعمليات المعالجة اللغوية، ودراسة طبوغرافيا المنطقة وتاريخها، إلا أن الكثير من الاسماء يتعذر فهم معانيها أو ربطها تاريخيا بالمكان، ومن هذه الاسباب ما ياتي:

1. قصور فهم مفردات اللغة التي تم تسمية المكان أو المعلم الطوبونيمي بها، وقد يكون ذلك بسبب تطور اللغة وتغير مفرداتها القديمة بمفردات جديدة، أو إبدال حروف أو تغير تسميات.

2. تعاقب الاجيال على المكان بلغات مختلفة، مما جعل بعض المعالم تحافظ على تسميتها القديمة وأخرى يتم تحويرها إلى اللغات الوافدة، مثل إضافة أل التعريف و ة الثانيت والنسب من العربية. فمثلا كلمة أگدرور: اسم مكان له معني توالي (الحقول في المكان) أو بمعني معاصر (طابور)، في المدن التي سكنها العرب تم إضافة أل التعريف مع بقاء حرف ياگ الامازيغي فاصبح الـگدرور، أما كلمة تامزا فتحولت إلى تمزاوة.

3. من المعروف أن الكثير من أسماء الطوبونيميا أطلقت بسبب حادثة أو قصة معينة شاعت بين الناس، ونحن نشهد على الكثير من الحالات في العهد القريب، شعبة الماطور مثلا أطلقت لان الايطاليين قاموا بتركيب مولد في الشعبة، ووادي العيساوي بالقرب من شكشوك سمى كذلك لان الشيخ العيساوي وقع له حادث في الوادي وتوفي فيه، وبذلك فان غياب القصة من أكبر التحديات لمعرفة أسباب التسمية للكثير من المعلم الطوبونومية.

3. بالمقابل هناك أسماء تاريخية كثيرة لا نعلم كيف وصلت الى عين المكان، ففي نالوت هناك شعبة باتوس[21] وشعبة وشيش، فالاول ملك على قورينا في القرن الخامس

21 - أصبح باتوس قائد الحملة اليونانية على قورينا أول ملك على المدينة وعرف بباتوس الأول أو المؤسس (639 ق.م - 600 ق.م)، وقد استمر حكمه لمدة أربعين سنة، واتصف حكمه بالعدل والاتزان. وخلفه في الحكم أبنه أركسيلاوس الأول (600 ق.م - 583 ق.م)، والذي حكم لمدة ستة عشرة عاماً، كانت امتداداً لحكم والده. وبعد ان استقرو في شرق ليبيا سمى باتوس هذه المستوطنة الجديدة (سيرين أو قورينا).

قبل الميلاد. ولقب وشيش يعبر عن مجموعة عرقية سكنت شرق المتوسط وهاجمت رمسيس الثالث الفرعوني سنة 1176 قبل الميلاد.

وهذه أسماء تاريخية محددة تجد صعوبة في تفسير إستعمالها على بعد ألاف الكيلومترات. أما الاسماء العادية مثل دفع عطية، قبر منصور، قصر أولاد بلقاسم، قصر البراشيش، فهي أسماء لاشخاص أو عائلات لها علاقة أو حاثة بالمكان، وخلاصة القول أننا كثيرا ما نقف مشدوهين أمام إسم لا تفسير له لغويا ويحتاج الى تفسير تاريخي بسرد قصة التسمية، وفي ذلك تساعد المرويات المحلية والكتب التاريخية المختصة بالمنطقة وكذلك الحكايات الشعبية المحلية لكشف اللثام.

5. أليات تدوين الطوبونيميا الليبية:

يمكن تدوين أسماء الاماكن وخصائصها وحتى صور لها بعدة طرق منها صدور كتاب لها يوضح اسم المكان ووصف ميزاته مع تحديد موقعه جغرافيا أو باحداثيات وروابط على الخرائط الدولية مثل (google maps and google earth) لتكون في متناول الجميع أو تجهيز تطبيقات خاصة لاستعمالها من الجهات الحكومية والخواص.

القصور والقرى في زوارة خلال العصور الوسطى

دراسة طوبونيمية-تاريخية في ضوء المصادر الجغرافية الإسلامية

وائل أبوزيد فطيس[22]

مقدمة

تُعدّ منطقة زوارة إحدى أهم الحواضر الساحلية في غرب ليبيا، وقد شكّلت خلال العصور الوسطى مجالًا عمرانيًا واقتصاديًا مميزًا، ارتبط بالبحر المتوسط من جهة، وبطرق القوافل العابرة للصحراء من جهة أخرى. وتكمن أهمية زوارة التاريخية في كونها فضاءً أمازيغيًا حافظ على بنيته الاستيطانية وهويته الحضارية عبر تحولات سياسية وديمغرافية عميقة. يهدف هذا المقال إلى تتبع القصور والقرى في زوارة خلال العصور الوسطى، اعتمادًا على المصادر الجغرافية العربية، مع توحيد المصطلحات الطوبونيمية وتحليل التحولات العمرانية والاقتصادية التي عرفتها المنطقة.

الكلمات المفتاحية: زوارة، ويلول، مسافات، القصور الأمازيغية، الطوبونيميا، الجغرافيا التاريخية، العصور الوسطى.

القصر وبنية الاستقرار

تتحدث المصادر الإسلامية عن الثقافة السائدة في الاستقرار لدى الأمازيغ، وعن ثقافة الاستقرار في القصر (أغرم)، حيث يُعتبر أغرم مركز الاستقرار في المدينة الأمازيغية، وهو يختلف عن القصر في الثقافات الأخرى، إذ يتميز القصر الأمازيغي كموقع محصن جماعي يمتلك الجميع غرفًا فيه تُستعمل لتخزين فائض الإنتاج من حبوب وأصواف وأقمشة وأنسجة، حيث يُعتبر أغرم مخزنًا وسوقًا في الوقت نفسه.

22 - باحث في التاريخ الليبي، مؤلف كتاب معالم حضارية من زوارة القديمة

وقد انتشرت القصور على طول الساحل الليبي، وأقدم المصادر التي تحدثت عن القصور هو اليعقوبي في كتابه كتاب البلدان حوالي القرن التاسع الميلادي. وسادت القصور على طول الساحل والداخل الليبي، وأحيانًا كانت القصور عبارة عن نقاط استراحة وحراسة على الطرق، وأحيانًا أخرى كانت مدنًا واسعة تحتوي على أسوار وقلاع وجوامع وأسواق متنوعة. فقد كان القصر، في معناه الواسع، مرادفًا للقرية أو التجمع السكاني الواسع في الواحات والسواحل الليبية.

تتكون هذه التجمعات تتكون من مساكن متلاصقة مبنية بالطين، وللدور فتحات خارجية باستثناء المدخل، وتفصل مجمعاتها طرقات ضيقة، تراها طورًا مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة، وطورًا أخرى ملتوية، ولا سيما إن قامت القرية على نتوء من الأرض أو سفح تل. وتكون تلك الطرقات الضيقة مغطاة في العادة كي يتقي المارة حرارة الشمس اللافحة.

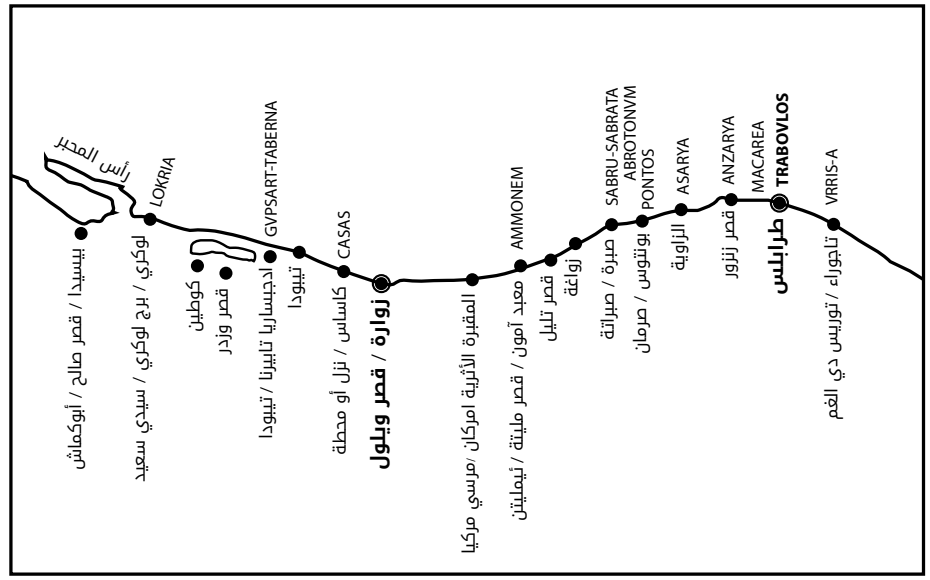

وأيضًا لا جدال أن لهذه القرى مظاهر حضرية، وهي السوق والحوانيت والمسجد. ويعلّق جوتييه عن ذلك بقوله: «إن القصر مهما صغر حجمه، هو ليس قرية، بل مدينة من الطين الجاف أو الحجارة». ومن القصور ما يكون مشيّدًا على طرف من البحر، ومنها ما يكون مطلًا على الجون، أي الخليج، وقد يكون القصر نواة لمدينة كبيرة، فتُعقد عنده الأسواق الأسبوعية، وأحيانًا يكون القصر مدينة كبيرة أهلها مياسير، ولهم إبل، ويسافرون شرقًا وغربًا، مثل قصر أم عيسى في الصحراء الكبرى.

كما ظهرت أنواع أخرى من القصور في العصر الإسلامي، وهي عبارة عن حصون ومحارس لحراسة الساحل من غزوات البيزنطيين، وذلك مثل قصر المنستير في تونس، وهو حصن أو رباط إسلامي لحراسة السواحل من الغزو، وفق نظام خاص به في البناء.

وأيضًا كانت لهذه القصور وظائف فلاحية وتجارية؛ فنشاهد قصر صالح قد تحوّل إلى مركز لتجارة الملح مع البندقية، لوقوعه بجوار الملاحات. ونشاهد قصر بني ويلول قد اشتمل على غابة نخيل ضخمة وبساتين لزراعة مختلف أنواع الخضر والفواكه. كما نشاهد قصر مركيا، وهو أمركان الحالي، قد احتوى على بقايا أرصفة بحرية وسفن غارقة تدل على انتعاش تجاري وتبادل سلعي كان يتم فيه بصورة كبيرة.

أسماء قصور زوارة في القرن الحادي عشر الميلادي

كان الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي، والذي قام بتأليف كتابه عام 548 هـ، الموافق حوالي سنة 1153م، وأسماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، قد أحصى فيه جميع القصور والحصون الليبية. وفيما يخص زوارة، تبدأ المسافات من قصر صالح (أبوكماش)، والتي أورد ذكرها التيجاني سنة 1307م، ويحصي المسافة بينها وبين المنطقة التي تليها بحوالي 20 ميلًا، وهو قصر كوطين، ومنه إلى قصر بني ويلول (أت ويلول) بحوالي 20 ميلًا، ومنه إلى قصر مركيا حوالي 20 ميلًا، ومنه إلى قصر عفسلات 20 ميلًا.

ويغفل إيراد مدينة صبرة أو قصر زواغة، وقصر تليل، وقصر مليتة (ئمليتن)، كما يتضح من المسافات طولها أكثر من المعتاد، حيث إذا اعتمدنا المقياس الإسلامي لتحديد الميل، سيصبح طول الميل هو 1848 مترًا، فستصبح المسافة مثلًا بين منطقة قصر صالح (أبوكماش) وزوارة، قصر بني ويلول، حوالي 72 كم.

ولكن من المعتقد أن الشريف الإدريسي استعمل الميل الروماني في تدوين المسافات، وخاصة أنه قد خدم في بلاط الملك روجار الصقلي، ملك صقلية، فمن المعتقد استعماله للميل الروماني تبعًا لذلك. وبالعودة إلى نصوص مبكرة أقدم من التيجاني، يورد لنا العالم الجغرافي الإسلامي ابن حوقل النصيبي حوالي سنة 977م، قبل الإدريسي بحوالي 176 عامًا، خريطة في كتابه صورة الأرض متغيرة قليلًا في مفرداتها عن الإدريسي والتيجاني.

فابن حوقل، لبعده عن شمال أفريقيا عكس الإدريسي والتيجاني، اللذين أحدهما شاهد عيان عما يكتب ويدوّن، والآخر يكتب عن محيطه الجغرافي الإقليمي، نجد ابن حوقل النصيبي، رغم إتقانه، أن كتابه حول الجزء الذي بين قابس وطرابلس، وهذا ما يهمنا، نجده يذكر المنطقة في خريطته، بدءًا من اليسار: وادي أجاس، وهو وادٍ يقع جنوب

قابس، بئر زناتة، أو أزروار، تاموديت أو تاجرجت، وآبار العباس أو تافضلات، والمنقوب، وصبرة، وبئر الصفا، وهي بئر الجمالين حسب ما يدوّن.

فنُشاهد التيجاني يحدد موقع تفاضلات، وهو آبار مياه تقع شرق قصر صالح، بعد نص ابن حوقل بحوالي 300 عام، وشاهد الناس وهي ترد الآبار لسقي مواشيها، وهو يتطابق اليوم مع منطقة سانية يحي (أونان ن يحي) شرق أبوكماش، في موقع ردار أبوكماش.

فهل أخطأ ابن حوقل في تحديد آبار العباس أو تفاضلات؟ كما يورد منطقة المنقوب قبل صبرة غربًا، وتوجد شرق زوارة، بين مليتة وزوارة، منطقة المنقوب، وهي منطقة فلاحية استقر بها أهالي زوارة منذ القدم إلى فترات قريبة.

كما يغفل عن قياس المسافات، بينما نجد نصًا أقدم، وهو ابن خرداذبة، في كتابه المسالك والممالك، أي قبل أكثر من 100 عام من نص ابن حوقل، نجده يذكر مدينة صبرة غرب طرابلس، ومدينة صبرة هي صبراتة الحالية، ومنها إلى بئر الجمالين 20 ميلًا، ومن بئر الجمالين إلى قصر الدرق 30 ميلًا، والأغلب أنه يحدد ملامح الطريق التي تمر جنوب الطريق الساحلي، وهو يحدد نقطة معروفة، وهي قصر الدرق (القصير) شرق طويلة غزالة.

فنص ابن حوقل يظهر منه أنه يحدد أسماء طوبونيميا أغلبها لمحطات القوافل، لوجود آبار المياه بها، ويُعتبر أقدم نص ذكر زوارة بتصحيف، وهو أزروار. وترد تسمية ازروار أيضا تحت صيغة زارور عند البغطوري في سيره كعائلات اباضية في جبل نفوسة فهل كانت تسمية أزروار هي نفسها كلمة زوارة، كتصحيف أو صيغة قديمة للمنطقة؟

ونجد نص الإدريسي حوالي سنة 1153م، أي بعد ابن حوقل بحوالي 176 عامًا، يتحدث عن طوبونيميا القصور المحلية، مغفلًا ذكر قصر مليتة، وقصر تليل، وقصر ويزدر.

وعند مطالعتنا لمصدر آخر لا يقل أهمية عن المصادر السالفة الذكر، وهو كتاب المسالك والممالك لعبيد الله البكري، الجغرافي والمؤرخ الأندلسي من جغرافيي القرن الحادي عشر الميلادي، ولد حوالي 1014م، نجده يتحدث عن القبائل التي بين طرابلس وقابس، يذكر: «وحول قابس قبائل من البربر: لواتة، ولّماية، ونفوسة، ومزاتة، وزواغة، وزواوة، وقبائل شتى».

فيذكر قبائل كبرى مثل نفوسة ولواتة وزواغة وزواوة، ويبدو أنه يقصد بها زوارة، خاصة أنه ذكرها بجوار زواغة في ترتيب تقليدي للقبيلتين في أغلب المصادر، فالغالب

أنه وقع في تصحيف اسم زوارة إلى زواوة، وهو خطأ تكرر عند ابن خلدون في تاريخه، حيث وقع في خطأ تصحيف اسم زوارة إلى زواوة، وهما قبيلتان مختلفتان، كل منهما تقطن جهة في شمال أفريقيا. كذلك يخطئ في اسم قبيلة مزانة، وهي تصحيف لقبيلة مزاتة المعروفة.

ونجد أن التيجاني يورد إشارة عابرة عن قصر مليتة أثناء حديثه عن أهالي الجم، واصفًا إياه بأنه قد خرب وجلت أهله إلى الجم نتيجة لتضييق غارات البدو عليهم، وهو منتهى أرض زوارة.

ويتضح من خلال هذه الآثار الجغرافية عن مواقع منطقة زوارة التاريخية خلال فترة العصور الوسطى، تتواجد أغلبها تحت مسميات قصور محلية أمازيغية مختلفة، وأيضًا آبار تقع أحيانًا جنوب المناطق الساحلية، وأيضًا قصور عبارة عن معالم أثرية. ويتضح الأهم من ذلك، وهو ترسخ طويل الأمد لهوية حضارية ليبية مميزة للسكان.

قصور زوارة في القرن الرابع عشر

ويبدو أن التغيرات الديمغرافية وتآكل قرى زوارة القديمة قد بدأ فعلًا في القرن الثالث عشر الميلادي، على أقصى تقدير، فغابت جملة من القصور المطلة على طرق القوافل العامرة ومحطات الطرق والآبار. فعند مراجعتنا للمصدر الأهم الذي يورد بعض الإشارات عن تلك الحوادث، وهو الرحالة التيجاني، نلاحظ أنه يتحدث عن ذلك بشيء من الاقتضاب، مما يجعلنا حذرين في الأخذ بروايته بالكامل.

وعند استقراء النص الخاص بزوارة، نستشف أن هناك على الأقل قصرين أو تجمعين محليين قد زالا أو على وشك الزوال، وهما قصر مليتة، الذي هجره أهله إلى الجم كما أوردنا سابقًا، وذلك بسبب كثرة غارات بني هلال عليه، مما أدى إلى تضييق حركة النقل التجاري والتبادل السلعي في القصر وفي مرفأ وقصر مركيا المحاذي له غربًا، وانعدام الثقة في المسالك البرية التي أصبحت تعمها الفوضى والسلب والنهب من قبل البدو، التي تعاصر موجات هجرتهم، ونزوح أهالي قصر مليتة نحو الغرب.

وأيضًا نلاحظ من نص التيجاني حديثه عن خراب قصر ويزدر، وأنه انمحى رسمه وبقي اسمه، وقد وجد بعض السكان الذين فضلوا الإقامة فيه رغم خرابه وانقطاع السكن فيه. وعند سؤالهم عن تمسكهم بالاستقرار داخل هذه المنطقة، أجابوه بأنهم «سكنوها حبًا في الوطن».

حيث نلاحظ أنه في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي تراجع الاستقرار في المنطقة، فخربت مليتة وأمركيا، وجلا أهلها، وهجر جزء من سكان ويزدر وطنهم في قصر ويزدر في زوارة الغربية، وإن بقوا جيرانًا متجاورين لقرى أخرى، منها وطن وكوطين وقصر بني ويلول، الذي يورد التيجاني اسمه بظاهر ويلول، وأنه قرية ضخمة كجزء من زوارة الكبرى التي يسميها بكوطين.

أيضًا لا تزال منطقة واسعة من غرب زوارة تُسمى بتسمية طوبونيمية أصلية، وهي كطوفة، فكطوفة تعتبر تسمية لإحدى القبائل المنحدرة من لواتة، كما يذكر ذلك المقريزي في كتابه البيان والإعراب. كما يذكرهم ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الرابع. فكان أن استقر جزء منهم في تلك الربوع ومنحوها تسميتهم لتلك الأرض.

وإضافة إلى ذلك، تتواجد تسمية مهمة أخرى، وهي تين جلاص، وهي نسبة إلى قبيلة جلاص الأمازيغية، والتي تنحدر بدورها من قبيلة لواتة، حسب ما يورد ابن الفوز البغدادي في كتابه سبائك الذهب، بأن بني جلاص فرع من قبيلة لواتة، كما يورد ذلك ابن فضل الله العمري الذي مر ذكره.

وتنتشر قبيلة جلاص اللواتية في تونس، حيث تمثل قبيلة كبيرة جدًا منتشرة على مساحة واسعة. ويذكر المؤرخ بو دوماس أنه اجتمع سنة 1910م بشيوخ من أولاد إيدير، وهم من جلاص، أخبروه بأنهم ينحدرون من أصل أمازيغي، وأن جدهم دفين خنقة زقلاس.

فقد كانت قبيلة لواتة متواجدة كعنصر أساسي في الجفارة والساحل، حيث قامت بثورات ضخمة ضد الوندال والبيزنطيين في القرن الخامس والسادس الميلادي، كما يورد ذلك بروكوبيوس في كتابه الملحمة الجوهانية.

كانت تلك الهجرات تشهد تحركًا عامًا اتجاه الغرب، فمبدئيًا نشاهد تواجد قصر لكطوفة في منطقة تطاوين في جنوب تونس، وأيضًا نشاهد اسم كوطين كاسم لإحدى المناطق جنوبي قابس، إضافة إلى وجود قصر بني زلطن في مطماطة، وينحدرون من قبائل زناتة الأمازيغية.

كما لا ننسى هجرة أهالي قصر مليتة إلى الجم، وأيضًا توالي هجرة أفراد قبيلة ويزدر إلى جزيرة جربة.

لكن، هل توقفت التجارة والتبادل السلعي من المنطقة نهائيًا؟

هذا السؤال المعرفي يُعد من الأسئلة المهمة حول علاقة زوارة بالبحر الأبيض المتوسط، ذلك المجال الحيوي الذي يحمل جملة من العادات والتقاليد المرتبطة بالبحر المتوسط اقتصاديًا وثقافيًا. فتشير المصادر إلى ازدهار تجارة الملح في غرب زوارة، حيث كان التجار من فينيسيا في القرن الرابع عشر يقومون بصفقات شراء الملح من ملاحات قصر صالح. وكان الملح تلك السلعة الأولية الهامة التي كانت تجود بها جملة من الملاحات الضخمة الشهيرة والمحيطة بالمنطقة الساحلية.

ويورد إيتوري روسي في كتابه تاريخ ليبيا توقيع اتفاقيات لتجارة الملح بين بني مكي اللواتيين وجمهورية القديس ماركوس (البندقية)، لأجل احتكار ملاحات زوارة في القرن الثالث عشر.

ويبدو أن الرحالة المغاربة، وهم من أهم المصادر التي وثقت أسماء وأماكن الاستقرار في زوارة، وإن كان أغلبهم قد استند ووضع روايته على نص التيجاني حول زوارة، ولم يكلف نفسه عناء البحث، فيذكر الرحالة تسميات مثل: الزوارة الشرقية والزوارة الغربية عند العياشي، وتسميات زوارة الغربية، وزوارة الشرقية، وزوارة العامرة، وزوارة الخالية.

وأيضًا نشاهد تحول تسمية قصر صالح إلى أسماء أخرى، منها برج الملح وبرج الشعالة وغيرها، وذلك كإشارة إلى تحول الاستقرار وتركزه في مناطق دون الأخرى، بدءًا من القرن السادس عشر الميلادي.

خاتمة

يُظهر تتبع القصور والقرى في زوارة خلال العصور الوسطى أن المنطقة لم تعرف قطيعة حضارية، بل شهدت تحولات في أنماط الاستقرار ووظائف القصور. فبين الازدهار التجاري المبكر، والتراجع الديمغرافي اللاحق، حافظت زوارة على حضورها كفضاء أمازيغي متوسطي، تتقاطع فيه طرق القوافل مع شبكات التجارة البحرية، وتترسخ فيه هوية حضارية ليبية مميزة.

الهوامش والمراجع (مختارة)

اليعقوبي، كتاب البلدان، القرن 9م.

الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 548هـ/1153م.

ابن حوقل، صورة الأرض، 367هـ/977م.

البغطوري، روايات الأشياخ.
ابن خرداذبة، المسالك والممالك.
التيجاني، الرحلة.
عبيد الله البكري، المسالك والممالك.
ابن خلدون، كتاب العبر.
المقريزي، البيان والإعراب.
ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار.
إيتوري روسي، تاريخ ليبيا.

جدول التوحيد الطوبونيمي

الصيغة الواردة	الصيغة الموحّدة	ملاحظات علمية
زواره / زواغة / زواوة	زوارة	زواوة قبيلة جزائرية مختلفة؛ زواغة قبيلة أمازيغية قديمة؛ زوارة الاسم المكاني
أزروار	زوارة (أزروار)	تصحيف مبكر عند ابن حوقل
قصر صالح / أبوكماش	قصر صالح (أبوكماش)	اعتماد الصيغة المركبة
بني ويلول / ويلول	قصر بني ويلول	الصيغة القبلية الأقدم
مركيا / أمركان	قصر مركيا (أمركان)	الاسم التاريخي أولًا
مليته / مليتة	قصر مليتة	تثبيت التاء المربوطة
ويزدر / ويزدار	قصر ويزدر	الصيغة الأكثر تداولًا في التيجاني
تفاضلات / تافضلات	تفاضلات (آبار)	اعتماد صيغة الجمع
المنقوب	المنقوب	ثابت طوبونيميًا
صبرة	صبرة (صبراتة)	توحيد تاريخي/أثري

فهرس المحتوى

مقدمة	3
الجرمانتيون في الكتابة التاريخية الحديثة	5
قراءة نقدية في كتاب الفراعنة الليبيون في مصر	10
الأسطول الداخلي	15
من قاعات مونتيزوما إلى شواطئ طرابلس	19
أحدث الأبحاث في جبل نفوسة (شمال ليبيا)	38
مدخل إلى الطوبونيميا الليبية	54
القصور والقرى في زوارة خلال العصور الوسطى	65
فهرس المحتوى	73
مختصر لمحتويات الدورية	74

مختصر لمحتويات الدورية

تقدّم هذه الدورية العلمية مجموعة من الدراسات والأبحاث المحكمة التي تتناول التاريخ الليبي في أبعاده المتعددة، من خلال مقاربات تاريخية، أثرية، وثائقية وثقافية، تسعى إلى إعادة قراءة الماضي الليبي قراءة علمية نقدية، قائمة على المصادر الأصلية والتحليل المنهجي الرصين، وبعيدة عن السرد التقريري أو التبسيط الاختزالي.

يضم العدد بحوثًا في التاريخ القديم والوسيط والحديث، تتناول قضايا الاستيطان، والسلطة، والمجتمع، والاقتصاد، والتحولات السياسية والثقافية التي عرفتها ليبيا عبر العصور، مع التركيز على الفاعل المحلي ودوره في صناعة الحدث التاريخي، وربط الوقائع بالسياقات الإقليمية والمتوسطية الأوسع.

كما تشمل الدورية دراسات في علم الآثار وتاريخ العمران، تعتمد على الشواهد المادية والنقوش والمعطيات الحقلية، وتُبرز أهمية قراءة اللقى الأثرية ضمن سياقها الزمني والثقافي، بما يسهم في فهم أعمق لتطور المدن والمجتمعات الليبية، وأنماط العيش والإنتاج والتنظيم الاجتماعي.

ويحتوي العدد أيضًا على بحوث في الوثائق والمخطوطات والتاريخ الشفوي، تُعالج قيمة المصادر غير التقليدية في كتابة التاريخ، وتناقش منهجيات جمعها وتحقيقها ونقدها، باعتبارها عناصر أساسية في استكمال الصورة التاريخية، وردّ الاعتبار للذاكرة المحلية والمجتمعية.

ويختتم العدد بمقالات تقويمية ومراجعات علمية تسلّط الضوء على إصدارات حديثة في مجال الدراسات الليبية، إلى جانب مقاربات منهجية حول كتابة التاريخ، تؤكد أهمية التعدد المعرفي والتكامل بين التخصصات في بناء سردية تاريخية علمية متوازنة، تسهم في ترسيخ الوعي بالتاريخ الوطني والهوية الثقافية الليبية.